ثمن الحرية
د. إميل نظير
رواية
www.riwaya.ml

ثمن الحرية

رواية

من

تأليف

د. اميل نظير

د. اميل نظير

إهداء

إلى ابنتي مهجة قلبي والأقرب إلى قلبي صغيرتي "رنا" والتي أدعوها دوما "رون حبيب بابا" أهدي روايتي تلك وقد رسمت من ملامحها وخفة ظلها شخصية بثينة .. أرجو حين تكبر وتقرأ روايتي تلك أن تعرف وتدرك يقينا أنني ما أحببت أحدا قط قدر ما أحببتها .. لكم أحببتك يا بنيتي!

بابا

* * *

ثمن الحرية

* ما أن عاد صغيره حتى اختفت ابنته .. فهل يتحمل الصدمة ثانية؟

* هل سيتحقق ما قالته العرافة .. «ستعود فتجدها بخير» ؟

* ولكن كيف يعود وقد أصبح عبداً لا يمتلك حريته؟

* وهل يستطيع أن يدفع ثمن حريته ويعود فيستعيد حياته ويسترد ابنته؟

* ترى ماذا حدث بالضبط؟

* * *

www.riwaya.ml

في إحدي أجمل الرياض الغناء بالبصرة في وقت الغروب، حيث تلون الشفق بلون أحمر محبب وقف سيف الدين يراقب الغروب وألوان الشفق التي راحت تخبو رويداً رويدا .. كانت الزهور والرياحين بألوانها البديعة هنا وهناك تضفي علي تلك اللوحة جمالاً ما بعده جمال .. ورائحة الزهور تمدها بالحياة والخيال .. بدا وكأن الرجل يقف في بقعة من الجنة ولكن أهكذا يكون حال من يقف في الجنة ؟

ما هذا الشرود ؟ وما هذا الحزن في عينيه ؟ ها قطرات من الدمع تسيل تصنع لها مجراًاً علي وجنتيه.

تري لماذا تجمع حزن الدنيا في عيني الرجل ؟

ولماذا كل هذا الشرود ؟ بدا وكأنه لا يحفل بأي شيء فيما حوله من جمال وكأنما لا يحفل بالحياة نفسها أتراه قد زهد فيها؟ أضربات قاسية نالته منها أزهدته فيها؟ لنقترب من ذلك الزاهد الشارد علنا نعرف ما حل به وما أصابه من ضروب الزمان .. ترى ماذا أصابه فتركه حطاماً من نظره عن قرب لا يدري ما إذا كان يقظاً أم غائبا عن الوعي .. ها هو عن قرب انه رجل في العقد الرابع من عمره ولكن آثار الزمن علي وجهه توحي بأنه قد تعدي الخمسين بمراحل يقف منتصب القامة يرقب الغروب ولكن هل كان يرقب الغروب أم يرقب شيئاً داخل نفسه الحزينة ؟

لابد وانه شارد في ما حل به من مصائب الزمان ولكن ماذا حل به؟ وما الذي وصل به إلي تلك الحالة؟

ترى .. كيف كانت البداية؟

ها هو أحد أصدقاءه قادم للسؤال عنه .. أتراهما يتطرقان إلي الحديث عما مضي فنسمع قصة الرجل علي لسانه ؟ إنه خير من يحكي ما حدث له .. ها هو الخادم يقترب ..

– سيدي!

– ماذا ورائك ؟

– السيد نصر الدين بالباب

– ويحك .. لم تركته ينتظر يا رجل؟ فليتفضل بالدخول على الفور

– كما تأمر يا سيدي

انطلق الخادم مسرعاً فهتف به قبل أن يغادر قائلاً:

– انتظر

التفت الخادم نحوه وعاد أدراجه إليه بينما يقول:

– امرك يا سيدي

– انتظر .. سأستقبله بنفسي

انطلق سيف الدين مسرعاً تمتزج الفرحة بالحزن علي وجهه نحو حديقة منزله وما ان رأي صديقه حتىركض نحوه فرحاً فاتحا ذراعيه وراح يضمه إلي صدره ويربت علي ظهره في لهفة وشوق بينما يقول الأخير:

– ما أن سمعت بعودتك يا شيخنا حتى أخذتني الفرحة فإذ بها تحملني إليك من بغداد بأقصي سرعة يتحملها جوادي

– مرحباً بك يا شيخنا العزيز

– لكم اشتقت إليك .. مضي عامان منذ التقينا

– نعم يا صديقي منذ خرجت في رحلتي المشئومة

– ولكن نحمد الله فقد كللت رحلتك بالنجاح

وأشار إلي طفلين يلعبان في الحديقة بينما استطرد قائلاً:

– وها أنت تنعم بقرب الصغيرين

ترقرقت الدموع في عيني سيف الدين بينما يتمتم :

– الحمد لله

وصمت برهة ثم استطرد بلكنة يشوبها حزن الدنيا قائلا:

– ولكني فقدت زوجتي ولا أدري اين هي الآن .. لقد بحثت عنها بلا جدوى في كل مكان

– ستعود بإذن الله يا رجل فكما انعم الله عليك بعودة أبناءك سيتم نعمته ويعيدها إليك

– ولكن كيف علمت بعودتي بمثل تلك السرعة ؟

– علمت لأنك في طريق عودتك مررت ببغداد ومع أنني أعتب عليك لعدم مرورك بمنزلي إلا أن غبطتي بعودتك أنستني غضبي وما بقي بي إلا شوقي إليك.

– اعذرني يا شيخنا فقد عدت صباح اليوم فقط إلي البصرة وقد كنت متعباً أشد التعب، وكاد الشوق يفتك بي لهفة علي أولادي ثم أنني من شدة التعب فقد سقطت في النوم منذ وصولي ولم استيقظ إلا الساعة

– عذرك مقبول يا شيخنا

وأمر سيف الدين العبيد فأعدوا المائدة وجلس الشيخان يتناولان طعامهما ويطمئن كل منهما إلي أحوال الآخر وما ناله من ضروب الزمان في الفترة الماضية .. كان الشوق بينهما في أوجه وكل منهما يود أن يعرف أخبار الآخر دفعة واحدة فشغلهما الحديث عن الطعام فتحدثا كثيراً وأكلا قليلاً حتى أن سيف الدين أنكر ذلك على صديقه ..

– ما أكلت يا صديقي ؟ أما أعجبك طعامنا ؟

– والله .. ما ذقت كمثل هذا الطعام في لذته يا صديقي ولكن معدتي امتلأت عن آخرها

– زد يا صديقي!

– أدام الله عزك يا سيف الدين .. حمدا لله

وأمر سيف الدين فجهز العبيد والخدم أفضل حجرة في المنزل للضيف الكريم وما تركه إلا بعد أن تواعدا أن يقضيا يومهما التالي معا يتحدثان ويتسامران ويتنزهان في رياض البصرة الوارفة

* * *

اندفع سيف الدين يعدو عبر منزله نحو الحديقة علي إثر سماعه لصوت بكاء صغيرته بثينة التي ملأت الدنيا صياحاً وأسرع ينتزعها من على ارض الحديقة انتزاعا ويحتضنها بكل قوته ويربت علي ظهرها وهي ما تزال تبكي وتنشج ..

– ماذا ألم بك يا صغيرتي؟

– إنه نور الدين يا أبي

– ماذا فعل بك يا حبيبتي

– لقد أخذ حصاني عنوة

– ولكنه حصان خشبي لا يليق بأميرتي الصغيرة .. سأحضر لك حصاناً حقيقياً يليق بك

وضعت كفيها الصغيرتين علي وجنتيه وهدأ نحيبها وظهرت ابتسامة علي وجهها من خلف دموعها زادت من جمال الصغيرة وفتنتها واندفعت تقول:

– أبي أنت تلهو بي إنني لم أعد صغيرة وأفهم جيدا انك لن تفي بوعدك

– فلماذا يا صغيرتي ؟ أكثير عليك – وأنت اعز ما أملك– أن أهديك حصانا حقيقياً؟

– ولكنني صغيرة ولا أستطيع امتطاؤه

– عجبا ! ألم تقولي منذ برهة انك لم تعودي صغيرة؟

أحست الصغيرة بالحرج فتلعثمت قليلا ثم أسرعت تصحح ما وقعت به من خطأ :

– لست صغيرة ولكنني لست كبيرة بما يكفي لامتطاء حصان .. ألا يحتمل ان اسقط عن ظهره؟

– إذن فما رأيك في حصان يسير الهوينى ويحابي صاحبته فلا يسقطها ولا يدعها تهتز فوقه؟

– وأين ذاك الحصان يا أبي؟

انحني سيف الدين ورفع الصغيرة علي ظهره فامتطته كالحصان وأخذ يسير بها بهدوء شديد، وصوت ضحكات الصغيرة يجلجل في أذنيه فيزيد علي سعادته سعادة و ..

– ما رأيك في هذا الحصان الرائع؟

وقبل أن يتلقي ردها أقبل عليهما طفل بهي الطلعة في مثل عمر بثينة تقريباً يجر حصانا خشبيا علي العشب الأخضر وقد خرج من مخبئه بعدما اطمئن إلي أن بثينة قد حصلت علي لعبة بديلة وكفت عن الصياح وما أن رأته الصغيرة حتى نسيت حصانها الآدمي تماما وتعلق بصرها بالحصان الخشبي واستأنفت بكائها وصراخها وانتصب سيف الدين واقفا وقد امسك بصغيرته بثينة بين ذراعيه محتضنا إياها يحاول ان يهدئ من روعها

فيربت علي ظهرها تارة ويمسح دموعها تارة فما تزداد إلا صياحاً وما وسعه إلا ان يقول في لهجة تمثيلية:

– أميرتي الصغيرة هذا عدونا نور الدين قد استولي علي حصان الأميرة لنذهب إلي المنزل فنحضر سيفا ونستعيد حصان أميرتنا الجميلة .. وإذا بالصغيرة تنقلب من البكاء إلي الضحك تنطلق ضحكاتها من بين دموعها تجلجل فتطرب قلب أبيها وتزيد نبضات قلبه وتذيده سعادة وغبطه

– إذن هيا بنا يا وزيري لنستعد للحرب

– هيا يا أميرتي

ويرفع سيف الدين الصغيرة بين يديه حتى يدخل بها إلي المنزل ويركض نور الدين خلفهما محاولا اللحاق بهما تاركاً حصانه الخشبي في الحديقة خلفه وما أن يدفع باب المنزل ويهم بالدخول حتى يفاجئه سيف الدين وقد حمله بين ذراعيه وأخذ يقبله والصغير يرسل يديه ورجليه في كل اتجاه ليتخلص من ذراعي الرجل

– ها قد أسرتك أيها الأمير

– لؤكني يا عماه

– والله ما أستطيع يا صغيري لقد أمرتني الأميرة الجميلة بثينة بالقبض عليك وأسرك جراء ما فعلته بها وبحصانها وها قد آل أمرك إليها.. لنري ما تحكم به عليك

ونظر نحو الصغيرة بثينة ثم انحنى أمامها انحناءة ولاء بحركة تمثيلية بينما يقول:

– والآن ما هو حكم أميرتي علي هذا الأمير المارق الذي سرق جوادها ؟

– لؤكه يا أبي فقد صفحت عنه

نظر سيف الدين نحوها متعجبا بينما يقول :

– ولكن أيتها الأميرة ..

– أتركه يا أبي فالعفو عند المقدرة

قال في دهشة :

– كما ترين يا أميرتي

تذكر شيئا فجأة فهز رأسه قائلا :

– ولكنك وقد تنازلت عن حقك أميرتي الجميلة أما أنا فلن أتنازل وسآخذ حقي منه كاملا .. عشرين قبلة

واحتضن الصغير بقوة ذراعيه وأخذ يقبل وجنتيه وجبينه والصغير يضحك وتجلجل ضحكاته المكان وما أن انتهي سيف الدين من تنفيذ حكمه حتى ضم الصغير إلي صدره ثانية وتنهد بعمق ثم شرد بعيدا وغرق في ذكرياته .. تذكر أخيه وهو يوصيه علي بابنه نور الدين بينما كان مستلقيا على فراشه يعاني سكرات الموت ..

– نور الدين ابنك يا أخي فلتعن به ولتربيه مع ابنتك بثينة

وتنهد قليلا ثم أستطرد قائلا:

– أرجوك عدني بذلك!

ترقرقت عيناه بالدموع وهو يقول:

– ستعيش وستربيه يا اخي لقد أخبرني الطبيب ..

قاطعه قائلا:

– دعك من الطبيب إنني اشعر بالموت يداهمني ولا يهمني في هذه الدنيا إلا أنني قد تركت فيها طفلاً شقياً يشقى بمصائبها ولم أترك له ما يعينه علي الحياة وأنت تعلم يا أخي أن اموالي قد ذهبت سدا بينما أجاهد

بوالدته لدى الأطباء فمذ ولدته وما تركها المرض يوما حتى توفاها الله وقد انفقت عليها كل ما املك وها الدنيا توجه للصغير لطمة أخرى فتجعله يتيم الأب كما الأم يكافح الدنيا بيد فارغة

– فلتطمئن ولتهدأ بالا يا أخي فما دمت حيا فلن أعوزه شيئاً بإذن الله

– أوعد هذا يا أخي؟

– هذا حقك علي يا أخي وقد ربيتني وأطمعتني طعامك بعد موت أبي .. إنني مدين لك بعمري

– ليس هذا بدين يا أخي وإنما حقك علي .. حق الابن لدى أبيه .. لقد كنت ابني ولم تكن يوماً سوى ابني

– ولن أري ابنك سوى ابني فاهدأ بالا واسترح قليلا فقد امرنا الطبيب ...

– دعك من الطبيب فلا وقت لتنفيذ أوامره .. إن هذا الطفل شقي منذ مولده فما لبث يقضي في الحياة عامه الأول حتى حُرِم حنان الأم وحرم معها رغد العيش وها الأيام تحرمه الأب ولا أدري ما تدخر له أيضاً من مصائبها .. إنني اشعر إنني قد جنيت عليه فلم أترك له ميراثا يتسلح به ضد الزمان

– لا تلم نفسك يا أخي فوالله ما قصرت وإنما هي إرادة الله .. إنه امتحان من الله ليظهر معدنك الطيب

– ولكنني أشعر وأنني مجرم في حقه يا أخي

– أما كفاه أن ورث عنك سمعتك الطيبة يا أخي وكثيراً من الخير الذي يدين به لك أهل البصرة صغيرها قبل كبيرها؟

– أرحني يا أخي وعدني ألا تتخلي عن الصبي مهما حدث

– أعدك يا أخي ولتطمئن وتهدأ بالا

– الآن أموت مطمئنا يا ..

وارتخت يداه وانطلقت روحه الي بارئها .. وتدفقت الدموع من عيني سيف الدين تنهمر كالمطر بينما يصرخ بلوعة وأسي:

– أخي! أخي!

وما لبث أن استعاد رباط جأشه ومد يده يسبل عينا أخيه و ..

أفاق سيف الدين من شروده علي صرخة من بثينة ونظر إليها من بين دموعه المنهمرة فإذا بنور الدين يجري مختطفاً دمية صغيرة كانت تمسك بها وإذ بها تنفجر في البكاء وتبعث بصرخاتها في كل تجاه وإذ به يقول لها:

– نحن وراءه وسنسترد كل ما سلبه عدونا أيتها الأميرة الجميلة

ومن بين دموع الصغيرة تنطلق ضحكة مجلجلة فيختطفها سيف الدين بين ذراعيه وينطلق بها عدواً خلف العدو ..

نور الدين

* * *

أشرقت شمس الصباح فألقت بضيائها علي حديقة منزل سيف الدين الوارفة فزادتها جمالا على جمالها وروعة علي روعتها وانطلقت الطيور تستقبل طلوع الصباح بتغريدها فأضافت إلي المشهد بهجة وحياة وفي وسط تلك الطبيعة الخلابة جلس سيف الدين يتحدث إلي صديقه نصر الدين وقد جلسا كلاهما إلى مقعد مقابل للآخر و ..

– كيف حالك يا صديقي

– بخير والحمد لله

– هل نمت جيدا ليلة أمس؟

– ما ان استلقيت علي الفراش حتى شعرت وان الصباح قد أصبح وكأنني في غيبوبة أكلت من الزمن ما أكلت

– إذن فقد نمت جيداً

– إنه التعب يا صديقي

– انك لعلى حق يا صديقي فالإنسان لا يشعر بالراحة إلا بعد أن يتذوق طعم التعب فالشيء بنقيضه يظهر

– أصبت يا شيخنا وكيف كانت ليلتك؟

– الحمد لله .. فقد نمت جيداً

اقترب منهما نور الدين وخلفه بثينة بينما يلهوان فعلت ثغر الشيخ نصر الدين ابتسامة سريعة بينما يقول:

– وكيف حال الأولاد ؟

– بخير والحمد لله

لم تمض لحظات حتى بدأ العبيد يصفون أطباق الطعام علي منضدة صغيرة أمامهما وبدأ الصديقان يتناولان إفطارهما وما أن انتهيا منه حتى شكرا الله علي نعمته عليهما وبدأ العبيد في تنظيف المنضدة ورفع بقايا الطعام ولم يطق الشيخ نصر الدين صبرا فبادر صاحبه قائلاً:

– ألن تكمل حديثك الشيق يا صديقي ؟ألن تخبرني أين غبت ؟ وكيف عدت ؟

سأخبرك كل شيء يا شيخنا .. كل شيء

* * *

كان أخي يحب زوجته حبا جما حتى أن أقرباءنا كانوا يحسدونهما على ما كانا عليه من سعادة وهناء وما أن ولد لهما نور الدين وما أن أتم عامه الأول حتى توفيت والدته بمرض عضال حار فيه الأطباء وأفلس أباه من جراء علاجها وإهماله لتجارته ولم تمض عدة أشهر حتى توفي أباه أيضا بعد أن أوصاني به خيرا ولكن خالته أصرت على تربيته لديها ولما كان الطفل متعلقا بها فلم أشأ أن أحرمه منها فكفاه حرمان الأب والأم ولكن ما أن دخل الطفل منزلها حتى توفي زوجها وشاع أن الطفل شؤم علي كل من دخل بيته وأنكره جميع الأهل ونصحني الأهل والأصدقاء بألا آخذه عندي ومازلت أجادلهم ويجادلونني يريدون مني التخلي عن الصبي لأنه شؤم حتى أقنعتهم أن الأعمار بيد الله وأنه مجرد طفل بريء .. ثم إن أباه أخي بل و أبي .. لقد رباني منذ توفي أبي وهو الذي وضع قدمي علي طريق التجارة .. هو سبب نعمتي وقد وعدته أن أعنى بإبنه وأعتبره ابني .. وكيف بي أن أجحده وأنكر جميله وما وعيت في هذه الدنيا من أناديه أبي فكانت كلمة أخي تعني لي الأخ والأب والصديق كانت كالسحر في فمي ما كنت انطقها حتى أجده قد أوجد حلا لكل مشاكلي وأتعابي وانتشلني من كل هفواتي وسقطاتي فما عرفت طعم الأبوة كما عرفت معني الأخوة التي كانت تعني لي كل شيء فإذا بي أرمي بكل ما يقولون خلف ظهري وأضرب به عرض الحائط وأحتضن الصغير بكل حب وأحمله إلي منزلي ولكن ..

– ولكن ماذا يا صديقي؟

– ما أن دخلت به من باب الدار حتى ..

وانحدرت الدموع من عينيه بينما يستطرد :

– توفيت زوجتي وافتها المنية وإذا بي انظر إلي الطفل وكأنه قاتل زوجتي وسبب شقائي وشقاء ابنتي .. ظللت انظر إليه وأحملق في وجهه بينما يصور الشيطان الطفل لي وكأنه شيطان وأحملق في وجهه بغدر والصغير يبتسم لي وقد ظن بوداعته أنني أداعبه بنظراتي وإذا به يقترب مني وما أدري بنفسي إلا وأنا أصفعه على وجهه صارخاً:

–ابتعد عني .. ابتعد بوجهك الشؤم

ابتعد الطفل بينما يبكي ويصرخ وأنا انظر إليه بينما قد صار قلبي من حجر فما رق للمسكين وما لان وإذا بي أجد نفسي لا أطيق النظر في وجهه .. طلبت من الخدم والعبيد أن يبعدوه عن وجهي فقد خفت عليه من نفسي خفت أن أراه في لحظة من غضب فلا أدري بنفسي إلا وقد قتلته .. ظللت علي ذلك شهوراً طويلة

– ولكن ما ذنب الطفل يا صديقي؟

– لقد حاولت إقناع نفسي بذلك مراراً ولكن قلبي كان وكأنما قد قد من صخر فما لان وما حن على الصغير ولا على طفولته الشقية حتى أنني ما كرهت مثلما كرهت هذا الطفل المسكين حتى أن الطفل نفسه ما كان يراني إلا ويصرخ ويبكي ويركض في أي اتجاه مبتعداً عني .. لقد تعلم الكره مني .. تعلم الكره قبل أن يتعلم الحب

صمت برهة تنحنح خلالها ثم أكمل قائلا:

ظلت بنا الحال هكذا وما أذكر إلا وأخي أمامي في حلم من أحلام المساء .. كان يرتدي ثوبا ابيضا ناصع البياض ولكن حزن الدنيا كلها كان يتجسد في عينيه بينما يقول:

– أهذا وعدك يا أخي؟

وهز رأسه في أسى وحزن بينما يستطرد:

- يا للأسف!!

شعرت بالارتياع بينما أجيبه:

– أعذرني يا أخي إنك لا تدري ما حدث

– بل إنني على دراية بكل شيء .. كل شيء

وصمت برهة ثم ارتسم غضب الدنيا على وجهه بينما يستطرد :

– كيف سمحت لنفسك ان تكره طفلاً لم يؤذك يوما؟

سالت دموعي بينما اصرخ به قائلا :

– أنت لا تدري لقد .. لقد قتل زوجتي ويتم ابنتي

– أما تخجل من نفسك؟ كيف لطفل مثله أن يفعل؟

– لقد كان شؤما .. لقد حذرني منه الجميع

– أو تصدق مثل هذا الدجل؟

– ولما لا أصدقه وقد حدث ما يؤكده مرات ومرات؟

– إنها أعمار والأعمار بيد الله وما تعدو تلك سوى أحداث قد رتبها الشيطان ليبث الحقد في قلبك و..

– ولكن يا أخي ..

قاطعني قائلا :

– لكن ماذا؟ أنسيت قدر ما أحببتك؟ أنسيت أنك كنت شؤما علي والديك بمثل تلك المقاييس التي تقيس؟.. أنسيت أن ابنتك كانت شؤما علي والدتها فما أتمت عامها الأول حتى وافتها المنية أيضا ؟ .. أنسيت أن الأعمار بيد الله لا بيد المخلوق ؟ أنسيت وعدك بأن ابني سيكون ابنك ؟ وإذا نسيت كل

ذلك أما تذكر كم احببتك ؟ .. أنسيت كم سهرت عليك في مرضك؟.. أنسيت كم دمعت عيناي بينما أطببك في مرضك ؟

ووضع كفيه على وجهه بينما يستطرد قائلا :

– واحسرتاه .. وامصيبتاه .. إن عذاب روحي بسبب أفعالك لا يضاهيه عذاب

– أخي تقبل أسفي .. إنني ولا شك مخطئ

رفع كفيه عن وجهه ونظر نحوي في أسى قائلا :

– أتعتذر لي بينما تشعل النار في فلذة كبدي؟ .. وتالله لن ارضي عنك حتى يرضي صغيري ولو غضبت عليك مائة عام ما كفاني

وراح يوح مرددا :

– وامصيبتاه .. وامصيبتاه

وانطلقت الدموع من عيني بينما أهتف به :

– أخي إنني نادم فلتصفح عني .. أرجوك لا تذهب .. لا تذهب قبل أن تصفح عني .. أرجوك!.. أرجوك!

واستيقظت من نومي بينما يردد لساني :

– أرجوك.. أرجوك .. لا تذهب قبل أن تصفح عني

وإذا بي أتحسس وجنتي فإذا بهما قد غسلهما الدمع وأكمل طريقه فغسل وسادتي وفراشي وإذا بي لا أكف عن البكاء وما أكف حتى انخرط في بكاء من جديد ومرت ساعة وما شعرت بها من الزمان ولم أنتبه إلا وقد وجدتني أعدو في المنزل كالمجنون ابحث عن الصبي في كل مكان بحثت في كل الحجرات وإذا بقلبي ينخلع من مكانة .. فما وجدت الصبي في أي مكان .. رحت أعدو كالمجنون أفتش الحديقة وأنبش كل شبر فيها .. كنت كالثور

الهائج .. استدعيت العبيد والخدم وما أدري بنفسي إلا وانا أهددهم جميعاً .. فحياتهم مقابل حياة الصبي .. وإذا بهم ينظرون إلي حيرى وعيونهم ملئى بالخوف والعجب الشديد .. ألم تكن بالأمس أمنيتي الوحيدة ألا أراه مجددا ؟ .. فماذا تغير؟

وقفوا مشدوهين .. وإزاء تلك الوقفة غلت الدماء في عروقي فاختطفت سوطي وقد كان معلقاً علي الحائط وما أدري بنفسي إلا وقد ألهبت ظهورهم .. تحولت في تلك اللحظة إلي وحشي كاسر .. صرخت بهم مهدداً إذا عادوا من دون الصبي فالموت لهم .. والعذاب كل العذاب.

* * *

مر اليوم وما أدري كيف مر .. كان يوم أطول من عام كانت النار تشتعل في قلبي ولم تنطفئ وخرجت أهرول في شوارع البصرة أبحث في كل مكان انبش كل شبر من الأرض وأطرق كل باب أمامي وسألت عن الصبي في كل مكان فما أجد غير عبارات الأسف ونظرات الأسى والشفقة، كنت مستعداً أن أتنازل عن كل ما أملك لمن يدلني علي مكان الصغير .. لم أكن أعلم أن كل هذا الحب في قلبي لهذا الشقي الصغير .. لم أعد أرغب في تلك الدنيا غير ان أراه وأضمه إلي صدري وأطلب منه أن يسامحني .. انهمرت دموعي انهاراً وفاضت علي ثيابي حتى غسلتها .. يا الله .. أما نشعر بقيمة ما بين أيدينا إلا بعد أن يضيع ؟ .. أهكذا هو الإنسان سعادته بين يديه ولا يراها؟ فإذا ما ضاعت أسباب سعادته أحس بما كان بين يديه وما كان فيه من نعمة؟ .. بدأت ألوم نفسي أشد اللوم وأوبخها أشد التوبيخ وأستعيد ذكريات كراهيتي للصبي فما أجد نفسي إلا مجرماً آثما فأزداد تعنيفاً لنفسي .. لم

يرحمني ضميري فحكم علي بألا أنام ولم ترحمني الأيام فما مر يوم إلا وكأنه عام .. كنت أظن أن مرور الأيام تنسيني ما حدث فما أنستني السنين بل زادت من شقائي .. لم أهنأ مذ ذاك الحين بنوم أو طعام أو لذة في الحياة .. كنت أعيش فما أنا بحي وأتمنى الموت فما أنا بميت فما أشفق علي الموت وما أجابني و..

نهض الشيخ نصر الدين عن مقعده وراح يربت علي ظهر صديقه ويهدئ من روعه وقد كان غارقا في دموعه و ..

– اهدأ يا أخي .. لما تلك الدموع؟ .. أما وقد عاد إليك الصبي؟ .. أما هو معك الآن يعيش في عزك؟ .. أما هو في بيتك سليما معافى؟

هز سيف الدين رأسه في أسى وحزن قائلا :

– لقد عاد .. ولكنك لا تدري كم عانيت؟ .. كم من السنين انتظرت؟ و..

–ولكنه في النهاية عاد .. لقد عاد يا صديقي عاد

ونهض سيف الدين واقفا عن مقعده وراح يستدعي الصبي الذي ركض إليه مسرعاً فحمله بين ذراعيه وأخذ يقبل وجنتيه وجبينه بينما يضحك الصبي جذلا .. أقبل الخدم يبلغونه أن طعام الغذاء قد أعُد فدعا ضيفه ليتقدم لتناول غذائه ولكنه ما لبث أن انتفض فجأة قائلا:

– أين صغيرتي بثينة؟

وكان من جراء هذا السؤال أن ساد الهرج والمرج وانتشر العبيد والجواري في كل مكان يبحثون عن الصبية إلي ان أسرعت جارية نحوه تحث الخطا وتطمئنه ..

– إنها نائمة في حجرتها يا سيدي .. لقد تعبت من اللعب ونامت في الحديقة فحملتها إلى حجرتها ووضعتها في فراشها

ظهر الإرتياح على وجوه الجميع وتنهد سيف الدين وضم الصبي نور الدين إلي صدره ومضي مع ضيفه الكريم ليتناولا الطعام سويا .. يتناولانه بنهم

* * *

جلس الصديقان يتناولان طعامهما بينما حاول سيف الدين جاهداً ان يغالي في إكرام ضيفه .. ولم يطق الضيف انتظاراً وقد شده ما حدث لصاحبه فأفقده شهيته فألح علي صاحبه ان يتم حديثه بينما يتناولان الطعام .. كان يتوق إلى أن يعرف كيف عاد الصبي؟ ومن أعادة؟ وما كان من سيف الدين إلا أن ينزل علي رغبة صديقه فراح يكمل روايته ..

– مر عامان علي اختفاء الصغير .. مرا وكأنهما ألف عام لم يغب عن ذهني خلالهما صورة الصغير ولا الجرم الذي ارتكبت وقد حملت نفسي المسئولية كاملة وتفنن ضميري في تعذيبي حتى أصبحت حياتي جحيما لا يطاق .. لم أجد غير الخمر ينسيني وهذا ما خيل إلي أو ما أوحى به إلى شيطاني فصرت لا أفيق من الخمر إلا لأجرع المزيد .. تبدلت طباعي فأصبحت اغضب مما لا يغضب وأثور مما لا يثير واستخدم السوط مع العبيد أكثر مما استخدم لساني..

ورفع كفيه أمام عيني صديقه بينما يستطرد قائلا :

ذاقوا علي يدي هاتين ذل الدنيا وهوانها بعد أن كنت أعزهم وأعاملهم معاملة الأبناء .. جاءني يوما صديق عزيز وهو الشيخ عز الدين وإذا به يجدني وإذ بي أنا لست بأنا وإنما قد صرت مسخا .. وإذا بالشيخ يستعيذ بالله مني ويهم بالرحيل عني وإذا بي غارق في دموعي أستسمحه واسترضيه وأقص عليه سبب تغير حالي ومصيبتي وبلائي .. هدأ الشيخ من روعي وطلب مني أن

استمر في بكائي عل الله يغفر ذنبي وأفهمني أن الله عز وجل عنيد لا يحب العناد .. فماذا فعلت بنفسي؟ هل أعاند الله ؟ .. استعذت بالله من شيطاني وغسلت وجهي وللمرة الأولى أجدني انسي الخمر في ليلي واقضي الليل في صلاة حارة ضارعه اطلب من الله المغفرة وأرجوه أن يرد لي صغيري ويسامحني علي عظيم أفعالي وإذا بالنوم يغزو عيني فنمت تلك الليلة ملئ جفوني .. يا الله .. لقد نسيت طعم هذا النوم العميق .. منذ سنوات ولم انم مثلما نمت في ذلك الليلة .. أدركت ليلتها أن السعادة ليست إلا في إرضاء الخالق وإرضاء الضمير .. رأيت ليلتها فيما يري النائم أن أخي قد اقبل نحوي يرتدي ذات الثوب ناصع البياض وكأنه يشع نورا وقد امتطي جواداً ابيضاً لا تشوبه شائبة قط ولقد كان يحمل الصبي بين ذراعيه ولما توقف بجواده أمامي ولاحظ تعلق عينيي بالصبي مد يده يناولني اياه من بين ذراعيه القويتين ولم يقل سوى كلمتين ولم يزد :

–الأمانة .. الأمانة

أسرعت أختطف الصبي من بين ذراعيه وكأنني اخشى إن تأخرت للحظات أن يتراجع عن هبته ويستعيد الصبي فيحرمني منه ثانية ورحت أقبل وجنتي الصبي وأضمه إلي صدري وإذا بي استيقظ فأجد وسادتي وقد احتويتها بين ذراعي أقبلها وأضمها لصدري فما وسعني إلا أن أجهش بالبكاء ونهضت من نومي أصلي واصلي وأتضرع إلى الله وأذرف أمامه جل دمعي وما أن انتهيت من صلاتي حتى فوجئت بأحد العبيد مندفعاً مهرولا يقتحم غرفتي .. لم يطرق الباب ولم يستأذن ولم آذن له فما أشعر بنفسي إلا وعيني عالقتان بسوطي المعلق علي الحائط وما أن رآني انظر إلي السوط حتى ارتسم الرعب في عينيه وبدا جليا علي وجهه وأسرع يعتذر ويعتذر

وما أن لان وجهي حتى أسرع يستأذن ليفر من أمامي وقبل أن يخطو خارج الغرفة وجدتني أهتف به في غضب :

– انتظر

تجمدت الدماء في عروق المسكين فأسرع نحوي يقبل يدي ورجلي في خوف وذعر وما زلت به أهدئ من روعه وأطمئنه بأنني قد صفحت عنه ولن يناله مني عقاباً حتى أبشر وجه المسكين وإذا بي أفاجأه:

– ماذا كنت تريد يا رجل؟

بدا لوهلة أن المسكين قد فقد ذاكرته تماما فبدا الذهول على وجهه وضرب جبينه بإحدى راحتيه ثم ما لبث أن تذكر فجأة وكان قد أنساه الذعر ما جاء من أجله فأبشر وجهه وأسرع يقول بفرح شديد :

– لقد عاد سيدي نور الدين .. البشرى يا سيدي

لم أصدق نفسي فوقفت مكاني مشدوها لا أدري إذا ما كنت مستيقظاً أم أنني ما زلت أحلم .. ولكن لأبد وأنني أحلم .. ذاك الحلم أكبر من أن يتحقق .. كانت الأيام قد زادت علي يأسي يأساً وتركتني حطام إنسان فلم أصدق وبدا الذهول على وجهي وسالت دموعي من مقلتي والعبد مازال بي يحاول أن يقنعني انه ليس حلما وما أمكنني تصديقه .. نظرت إليه مشدوها وبلاهة الدنيا في عيني .. ويحاول المسكين إقناعي ثانية وإذ بي وكأنني استيقظ من غفوة فجأة فركضت بكل قوتي .. وركضت .. وركضت .. ورأيته .. نعم رأيت نور الدين .. رأيت الصبي .. وإذ بي لا أصدق عيني فأغمضهما .. أغمضتهما لثانية ثم فتحتهما وإذا المشهد ثابت وما اختفي من أمامي .. إذن فهو حقيقة وليس حلما .. وأركض بكل ما أملك من قوة فاتحا كلا ذراعي لأختطف الصبي إلى صدري .. كان الصبي يقف أمامي

في ردهة المنزل متشبثا بيد فتاة تبدو في العقد الثالث من عمرها ما رأيت مثل جمالها من جمال ولا أظنني قد أرى وخلفهما مجموعة من العبيد والجواري .. كان الصبي يقف إلى جوارها مطمئنا كل الاطمئنان ولكن ما أن رآني أركض نحوه حتى انفجر صارخا باكيا وطفق ينظر في كل صوب واتجاه يبحث عن مهرب مني .. يبحث عن مهرب من حضني .. مهرب من ذراعي الممدودتين اللتين تناديانه بكل لهفة الدنيا .. ولكن لماذا العجب؟ .. ألم أزرع بيدي الآثمتين ما أجني؟

شعرت وكأن قطعة من جسدي تفلت هاربة مني .. أفلت الصبي يده عن يد الفتاة وراح يجري يحاول الهرب مني وإذا بالعبيد والجواري يطاردون الصبي ويمسكون به فما وسعه إلا أن يحاول التملص منهم بينما يبكي ويصرخ ويحاولون التهدئة من روعه دون جدوى وانطلقت أهرول نحو الصغير وكلما اقتربت منه ازداد صراخه وعويله وكأن وحشاً قد اقترب منه ليلتهمه .. تبا لي .. لم كل هذا العجب المرتسم علي وجهي؟ أكنت أتوقع من الصغير أن يجري فاتحا ذراعيه ملقيا بنفسه في صدري متقبلاً قبلاتي ضاحكا فرحاً؟ .. عجبا لي! . . بل هو العجب كل العجب!

* * *

"وبعد يا صديقي؟"

نطق نصر الدين بتلك العبارة يستحث صديقه على المضي قدما في حديثه فقد كان يتوق شوقا لإتمام الروايةليعرف سر تلك الجميلة التي كانت تقف إلي جوار الصغير كان يتوق إلى معرفة سر اختفاء الصغير بعد أن

أجهد عقله في محاولة لتخمين ما حدث فما أسعفه خياله وما زاده إلا توقاًاً للمعرفة وما فتئ سيف الدين يسرد ويستكمل روايته :

– ما أن اقتربت من الطفل حتى أمسكت به بكلتا يدي وقلبي يحدثني بأنني ما زلت أحلم وسرعان ما يختفي الصغير فأجد نفسي وقد أطبقت بيدي علي الهواء أو العدم فذدت من ضم ذراعي علي الصغير فما زاده ذلك إلا خوفاً مني وفزعاًاً .. ضممت الصغير إلي صدري وهو في ذهول من أمره لا يصدق ما يحدث والعبيد كل وقف مشدوها في زاوية من زوايا المنزل وكأن الطير علي رؤوسهم وقفوا يراقبون والدمع يسيل من كل العيون وزدت الصغير ضما بينما ابكي وأنشج وأقبل يديه ووجنتيه كالمجنون طالبا الصفح والسماح منه وما لبث الصغير أن لانت ملامحه فمد يداه ببراءة الأطفال وقلب ناصع البياض يضمني ..

– عماه!

هتفت به من بين دموعي قائلاً :

– بل قل أبي فلست بعمك منذ الحين

ومرت دقائق أفرغت فيها كل دموع عيني ومايزال الصبي في حضني وما أفقت إلا علي صوت ما سمعت أرق منه ولا أعزب وإذا بالفتاة تطلب الحديث إلي قبل أن تغادر فأفقت مفزوعاً من نفسي كيف تركتها ولم انتبه إليها ولم أدعها للجلوس حتى؟ .. ويلي! .. شرعت أعتذر لها وألوم نفسي فما كان منها إلا أن تبسمت بأجمل ما رأيت من ابتسامة وطيبت خاطري وأفهمتني أنها تقدر الموقف والظروف .. أرادت أن تطمئن علي الصغير قبل أن تذهب وتغادر واستفسرت عن سبب رعبه مني فأخبرتها أنها قصة طويلة ودعوتها أن تجلس معي قليلاً في الحديقة لأقصها عليها فيطمئن

قلبها وبعد أن أكرمتها وأجزلت العطايا للعبيد والجواري الذين يرافقونها وسمعت قصتي وسمعت قصتها اطمئن بالها وأوصتني بالصبي خيراً ثم استأذنت أن تنصرف وما كادت أن تصل إلي باب الحديقة حتى رأيت الصبي وقد ركض إليها بكل قوته فاتحا ذراعيه فالتفتت إليه وانحنت تلتقطه وتحمله بين ذراعيها وتضمه إلي صدرها والصغير يهتف بهلع :

– أرجوك لا تتركيني يا أمي! .. ارجوكي يا أمي!

وإذا بدموعها تنهمر وتنهمر علي إثرها دموعي والطفل يبكي وينشج وكل من رأى المشهد من العبيد يبكي وينشج ومازلنا في دموعنا وذهولنا حتى أفقت على صوت الفتاة تطلب مني الإذن بان تزورنا في الغد وبعد غد لتطمئن علي الصغير وتألف البعد عنه ويألف البعد عنها وأوضحت أن سفينتها سترحل عن البصرة بعد يومين فلن تعود تزعجني بعدها وأذنت لها بل كان قلبي يرقص فرحاً بينما أوميء لها بالإيجاب .. تري ماذا حل بذاك القلب الشقي فجعله يرقص فرحاً؟ ..أهو الحب؟ .. أهو الحب من أول نظرة؟ .. بدا واضحا أن قلب الفتاه قد سلب لب الرجل ولم يكتفي فقد أسره .. أسره وأسر قلبه .. تماما

* * *

كنت في تلك الليلة في أوج سعادتي حتى أنني لم أنم حتى الصباح والطفل ما فارق حضني وقد نام طوال الليل وما كففت لحظة عن النظر إليه وكنت كأنني أري ملاكاً صغيراً تترسم البراءة بكل صورها على وجهه ورأيت في براءته فداحة جريمتي .. تري كيف استطعت أن أكن له كل تلك البغضاء والكراهية؟ .. ظللت ألوم نفسي علي ظلمي للصبي وظلت

الأفكار تتلقفني حتى وصلت بتفكيري إلي تلك الحورية التي اصطحبته وذلك الجمال الرباني والصوت الناعم الناعس الذي يحرك قلبي فلا يسعه إلا أن يرقص علي انغامه العذبة وظللت ساهراً طوال الليل وما أن وافاني النوم فجراً إلا لأحلم بها في منامي فلما استيقظت وكان ذلك وقت الظهر رحت أغمض عيني بسرعة حتى استكمل الحلم أو هكذا خيلت لي نفسي ولما طار الحلم وتيقنت من ذلك أغمضت عينيي ثانية ورحت استكمله بنفسي وانسج لمساته الأخيرة بخيالي ولكن فجأة خطر لي خاطر غريب كدر علي لهوي .. ويلي .. أكان كل ما حدث حلما ؟ حركت يدي أتحسس فراشي فلم أجد الصغير بجواري .. نهضت من الفراش مفزوعاً .. أكان ذلك حلما حقاًً؟ .. ولكن مستحيل! لقد رأيت كل شيء وكأنه واقع مؤكد فكيف يكون حلماً؟ .. ركضت أبحث وأفتش في أرجاء المنزل علني أجد دليلاً أو إشارة أكان ما كان حلما أم حقيقة ؟ .. أكاد أجن .. أمن الممكن أن يكون كل ما رأيت أضغاث أحلام؟ ولكن هذه السكينة والطمأنينة في قلبي هل من الممكن ان تكون من جراء الأحلام ؟ ولكن نومي العميق نفسه دليل علي أن ما حدث كان واقعاً .. وإن كان ذلك واقعاً فأين الصغير ؟

– يا الله!

تنهدت بارتياح وزفرت كل هواء رئيتي دفعة واحدة عندما خرجت إلي الحديقة فوجدت الصبي والصبية يلعبان .. يا الله .. ما رأيت بثينة بمثل تلك السعادة مذ غاب الصبي ما سمعت هذا الضحك النابع من القلب وما ملأت السعادة منزلنا سوي الآن .. أحسست آنذاك أنني قد صرت طفلا في العاشرة من عمري فركضت ألاعبهما وألعب معهما وأداعبهما

وأحتضنهما وأجري منهما حينا ويجريان مني حينا .. اختبئ منهما حينا ويختبئان مني حينا فأفاجئهما في مخبئيهما ويفاجئنني فما أنال منهما غير الضحك المجلجل والفرحة الغامرة فلا أتمالك نفسي إلا وأحتضنهما وأضمهما إلي صدري واستطعت في ذات اليوم أن أنسي ذاك الطفل الشقي كل ما أسأت في حقه حتى نسي أنني عمه وما يذكر إلا إنني أباه .. وبينما كنا نلعب ونمرح وإذ بي أرفع وجهي فأنظر فتاة الأمس – سلمي – تقف بالباب تنظر إلينا في لهونا فلا يسعها أن تكتم بهجتها وسعادتها فعلي وجهها ارتسمت ابتسامة ما رأيت وما أظنني سأري مثلها .. ما أن رآها نور الدين حتى نسيني تماما ونسي بثينة بل نسي كل شيء واندفع نحوها هاتفا:

– أمي .. أمي

فتحت الفتاه زراعيها ثم انحنت تلتقط الصغير وتحمله إلي حضنها .. وما أن رأيتها أنا حتى نسيت الدنيا كلها ونسيت نفسي .. أسرعت اسلم عليها وما أن لمست يدها حتى سرت قشعريرة في جسدي احتوتني من رأسي إلي أخمص قدمي .. تمالكت نفسي سريعاً ودعوتها للدخول :

– مرحباً

ورقص قلبي .. رقص .. ورقص

* * *

دعوتها لقضاء اليوم معنا فأبت ولكن نور الدين ما زال بها يدعوها ويلح عليها ..

– أمي لا تتركيني .. لا تتركيني أرجوك!

حتى تراجعت عن قرارها وقضينا يوماً كان من أجمل أيام عمري حتى أنني أنكرت علي الزمن أن يمضي وتمنيت أن يقف عند اللحظة لا يتقدم ولا يتأخر ومضينا نلعب كالأطفال كنا نأخذ الصبية حجتنا فنلاعبهما وقد كنا نحن من نلعب نسيت عمري ونسيت عمرها ولم نذكر إلا اللحظة وسرت بيننا الألفة وألّف الحب بين قلوبنا فلم تمضي الفتاة إلا علي وعد باللقاء وقد طلبت منها أن تحضر في اليوم التالي باكرا حتى نقضي اليوم من اوله ولم أنم تلك الليلة كنت أفكر في كل كلمة لفظتها في كل همسة همستها كنت أتذكر حركاتها لفتاتها لم تترك صورتها عيني وما غفت عيني قرب الصباح حتى وجدتها في حلمي كان حلماً يجسد في داخلي حلما فقد رأيتها وقد ارتدت فستان الزفاف الأبيض وقد بدت كحورية من الجنة بها كل جمال الدنيا وقد زادها فستانها الأبيض جمالاً علي جمالها وفتنة علي فتنتها وكانت تضع يديها الرقيقتين بين راحتي فما أكاد المسهما من رقتيهما حتى خيل إلي أنهما ذابا بين راحتي .. لم أشعر بنفسي إلا وإحدي الجواري توقظني بينما أحدثها نصف نائم وأطلب منها أن تبتعد وتتركني وهي من أمري حيرى ..

– فهل اعتذر لها يا سيدي؟

– اغربي عن وجهي!

– سأعتذر لهاو ..

– من بحق السماء يزورنا في الفجر؟

– ولكن الشمس أشرقت منذ ساعاتيا سيدي

– سحقا لك فلتنصرفي الآن!

– حسنا سأعتذر لسيدتي سلمى

نهضت عن فراشي على إثر سماعي لإسم سلمى وكأن ثعبانا قد لدغني وقد ولي النوم من عيني ودب النشاط في كامل جسدي بينما اهتف والفرحة تكاد تقفز من عيني :

– سلمي؟ .. لماذا لم تقولي ذلك من قبل

غمغمت الجارية:

– لقد قلت مرارا وتكرارا يا سيدي

اندفعت إلى كل صوب واتجاه ولم أكن أدري ما أصابني ولا أدري ماذا أفعل من ارتباكي والجارية تنظر إلي مشدوهة وعلي وجها نظرة أقرب إلي البلاهة فصرخت بها :

– لماذا تقفين هكذا؟ فلتقدمي شيئاً لضيفتنا إلى أن أبدل ملابسي

خرجت الجارية مسرعة وأسرعت إلي ثيابي أنتقي أفضلها .. عجبا!.. وكانني انظر إلي ثيابي للمرة الاولي فما أعجبني منها إحداها وما أرضاني .. أكنت مهملاً مع نفسي ؟ ولكنها أغلي وأجمل ثياب البصرة فلماذا لا أرضي بها ولا تعجبني ؟ .. حسمت أمري وارتديت إحداها وأسرعت بخطوات أقرب إلي العدو لأرحب بضيفتي فوجدتها وقد أجلست الصبي والصبية علي ركبتيها وراحت تداعبهما وتلاعبهما فما أسمع إلا ضحكات وكركرات تنعش قلبي وتبثه سروراً وبهجة وما أن رأتني حتى أنزلتهم عن ركبتيها ونهضت تسلم عليّ وقد علت وجهها ابتسامة خجلي بينما تقول ورقة الدنيا في صوتها:

– آسفة يا سيدي .. لقد جئت حسب الموعد مبكرا فأقلقتك من نومك

– بل نقلتني من سعادة إلي سعادة أكبر

ابتسمت ابتسامة رائعة زادت من جمالها بينما تقول :

– وكيف ذلك يا سيدي؟

– فأي سعادة أكبر من أن أحلم بك فأفتح عيني علي سعادة أكبر حين يتجسد الحلم فأراك

ابتسمت بينماااحمر وجهها خجلا فخفضت عينيها تهرب من عيني إلي الصغيرين تداعبهما بينما تقول :

– أشكر لك لطف حديثك يا سيدي

– صدقيني! .. ما عشت السعادة قط مثلما عشت اليوم معك وما رأيت من جمال الدنيا مثلما رأيت في عينيك وكأنني أري الدنيا للمرة الأولي

خرجنا معا وأخذنا الأولاد معنا وطفنا بالمدينة وتنزهنا في رياضها وامتطينا الجياد و.. وفجأة .. فجأة انقلب لهونا حزنا وغما وتحول فرحنا أسى ولوعة بينما ننظر إلي الصغيرة بثينة وقد سقطت عن الجواد في الحديقة ورغم أنها سقطت على كومة من الأعشاب خففت كثيرا من أثر السقطة إلا أنها راحت تبكي وتصرخ وخيط من الدماء يسيل من أحد ذراعيها فتسيل معه دموعنا .. يبدو أن الدنيا لا تهبنا السعادة صافية فلابد أن يعكر صفوها شيئاً، انقلب يومنا هما وغما وأسرعت أحمل الصبية واركض بها إلي الطبيب الذي طهر جرحها وضمده والصغيرة علي صرخة واحدة وسألت الطبيب أن يطمئنني فطمأنني وشرح لي حالتها وافهمني أنها والحمد لله لا تعاني من أي كسر ولكن سقطتها قرب جذع شجرة ملقي علي الأرض بين العشب قد ترك في ذراعها جرحاً غائراً وسيشفي مع الأيام ولكنه قد يترك أثراً طفيفاً وأشفقت علي الصغيرة وسالت دموعي من اجلها وتمنيت علي الله لو كنت بدلاً منها ليتني أفتديها بروحي .. ليتني

ربت الطبيب علي ظهري بينما يقول :

– اطمئن يا سيدي فالجرح بسيط

حملت الصغيرة في حضني ألاطفها وأهدهدها طوال الطريق حتى هدأت وعدت بها إلي المنزل وكنت قد أوكلت إلي احد العبيد أن يعيد سلمي ونور الدين إلي المنزل فما أن وصلت حتى راحت سلمي تعدو نحونا وقد قتلها القلق على الصبية ولعبت برأسها الظنون فطمأنتها وما أن اطمأنت حتى استأذنت لتعود إلي السفينة ومازلت بها أحاول ان اثنيها عن عزمها ولكن دون جدوى .. اعتذرت لان السفينة ستقلع مع الفجر ولابد لها ان تستريح هي قليلاً قبل ان تغادر وطفقت تقبل جبين الصبي وما ان انتهت منه حتى بدأت تقبل الصبية ودموعها تسيل علي وجنتيها والطفلان يبكيان :

– أمي! .. لا تتركينا! .. ارجوك لا تتركينا يا أمي!

وما آراني إلا وقد غرقت عيناي في دموعهما أيضا وانظر إلي الأطفال فتزداد دموعي انهمارا وانظر إليها وإلي دموعها فتفيض دموعي أنهارا وما ان أجففها بمنديلي حتى تنهمر ثانية .. وما أن انتهت سلمي من الأطفال حتى نظرت إلي من بين دموعها ونظرت اليها عبر دموعي فودعت عيناها عيناي وخفق قلبانا معا يعتصر كليهما آلام الوداع .. تمالكت نفسها قليلا وراحت تقول في حزن :

– ما كنت اتمني ان تأتي لحظة الوداع فما اصعبها

– لكل شيء لابد من نهاية

– ولكن السعادة ما تلبث أن تبدأ حتى تنتهي

– ربما ولكني أشكرك

– علام ؟

– علي سعادتي فانا مدين لك باجمل ايام عمري

– وانا أشكرك أيضاً علي تلك السعادة التي منحتني، ولكن لي عندك طلب

– أطلبي حياتي فأهديها لك عن طيب خاطر

ابتسمت من بين دموعها فإذ بي أمد يدي فأجفف دموعها بمنديلي فأطرقت في خجل بينما تقول :

– بل أريد ما هو أقل بكثير

– أمرك نافذ علي رقبتي

– إذن فعدني ان ترعي الطفلين وتحبهما وان تسمح لي بزيارتهما كلما مررت بالبصرة

– أما عن الطفلين فهما فلذات من كبدي فكوني مطمئنة وأما عن زيارتك فالمنزل وصاحبه ملك يمينك

– فهل ستحضرهما ليودعاني قبل ان تقلع السفينة مع الفجر ؟

– بالطبع سنكون هناك جميعاً

– فهل اعتبر هذا وعداً ؟

– بل هو رجاء منا إليك ان تسمحي لنا بوداعك

اغرورقت عيناها بالدموع من جديد وانطلقت مبتعدة حتى وصلت إلي باب الحديقة فالتفتت الي الخلف وأشارت بإحدي يديها بالسلام وما ان فعلت حتى أفلت الطفلان ايديهما من يدي وقد كنت امسك بهما وركضا يهرولان ويتسابقان الي حضنها فاختطفتهما بين ذراعيها واحدا تلو الاخرى تحتضن هذا وتقبل هذه والاطفال يبكون ويزرفون كل ما اختزنوا للزمن من

دموع وهي تبكي وانا أبكي والعبيد ينظرون الي المشهد فإذا بهم يبكون أيضاً، وإذا بالصغار من وسط دموعهما أحدهما يقول والأخرى تردد :

– أرجوك لا تتركينا! .. لا ترحلي يا أمي! .. أمي .. أمي أرجوك!

وإذا بي ولا أدري كيف اجترأت فأشرت للعبيد فانتزعوا الطفلين من بين يديها بينما يصرخان وأشارت سلمي بإحدي راحتيها بالسلام مرة أخري وانطلقت بخطوات أقرب الي العدو وكانها تخاف ان تبطيء فتجذبها خيوط خفية فتعيدها إلينا

وما ان مضت حتى حملت الطفلين بين ذراعي ..ألاطفهما وأهدهدهما من دون جدوى وأخيرا أسرت ببعض كلمات في اذنيهما فابشرت وجوههما وأخذا يهللان وما تركتهما من بين يدي حتى راحا يلعبان ويجريان ويتسابقان ويملآن الدنيا صخبا ومرحاً ويفيضان في قلبي فرحاً .. فرحاً وسعادة

* * *

وقفت سلمي علي متن السفينة وقد بدا علي وجهها الحزن واليأس والقلق وهي تنظر يميناً ويساراً في وجوه المودعين فلا تري سيف الدين ولا تري الطفلين وانزلقت الدموع علي وجنتيها تزيد من حزنها حزنا وترسم علي وجهها صورة مرة من الكآبة والوجوم ومرت الدقائق تأكل الزمن وأزف الوقت للرحيل ولا جدوي فما ظهر سيف الدين ولا ظهر الطفلين وانطلق الشيطان يرسم لها سيف الدين رجلاً ذا قلب من حجر .. أيضن عليها بنظرة أخيرة؟

أيحرمها رؤية الطفلين وقد تعلق بهما قلبها؟ أبعد كل هذا الحب الذي تبينته في عينيه يحرمها لحظة وداع أخيرة؟ .. أكانت واهمة لتلك الدرجة فيما تبينت؟ .. لابد وانها واهمة .. أيمكن ان تنخدع في رجل مثلما انخدعت؟ .. ها قد وعت الدرس .. نعم فالرجال جميعاً تفيض قلوبهم قسوة .. ألا يشعلون حرباً شعواءاً لأسباب تافهة ؟ أما اشتعلت حرب لعشرات السنين من أجل ناقة؟ .. يال الرجال! .. تبا لهم جميعاً .. لن انخدع بأحدهم بعد الآن .. وهذا المغرور سيف الدين لو أتاني زاحفاً لما صفحت عنه .. ولكن قلبي .. شوقي للطفلين يكاد يقتلني .. انهمرت دموعها .. رأت أبيها يقف الي جوارها فارتمت في حضنه تاركة لدموعها العنان وقد انطلقت السفينة تمخر في البحر فتشق طريقها تاركة اثارها علي مياهه والتي سرعان ما تزول

قال ابيها في أسى واضح :

– خبريني ماذا بك يا بنيتي؟

اندفعت في بكائها ودموعها تنهمر فتسيل علي كتف أبيها بينما تقول :

– لم يحضر يا أبي .. لم يحضر

– من تقصدين يا بنيتي ؟

– سيف الدين يا أبي .. سيف الد...

احمر وجهها خجلا فاسرعت تصحح :

– اقصد انه لم يحضر الأطفال لأودعهم يا أبي

– لا تخدعي نفسك يا ابنتي قولي لأبيك الحقيقة .. هل احببته؟

– للأسف يا أبي ولكن ذلك لا يمنع من شوقي للطفلين فيا لتعاستي !

– ولم التعاسة يا بنيتي ؟

– لقد ضن علي بلحظة وداع يا أبي .. ما طمعت في أكثر من لحظة وداع ضمها الي صدره أكثر وأكثر وراح يربت علي ظهرها بينما يقول:

– لماذا تبحثين عن سعادتك بعيدا يا بنيتي ألا يحتمل ان تكون سعادتك تحت قدميك ولا ترينها

– وكيف لي ان اسعد أو أهنأ بالا بعد الآن يا أبي لقد ذهبت كل أسباب سعادتي ولم يعد لي في الدنيا ما أعيش من أجله

ربت علي أحد كتفيها ودفعها عن حضنه وأشار بإحدى راحتيه إلي شيء ما خلفها بينما يقول :

– إذن انظري ذاك المشهد فقد يعجبك

نظرت خلفها فرأت من بين دموعها مشهدا لم تتبينه جيداً أو لعلها لم تصدق ما رات عيناها فمدت يداها تجفف دموعها ونظرت ثانية و..

ومادت بها الدينا ودارت فسقطت علي الارض وغابت عن الوعي .. تماما

* * *

أخذ الشيخ نصر الدين يستحث صديقه علي المضي في حديثه قدما ويستفسر منه عما رأت سلمي فأفقدها وعيها وأنكر على سيف الدين عدم ذكره كيف اختفي الصبي؟ وكيف عاد؟ وما قصته؟ ولماذا غاب لعامين كاملين ؟

فهدأ سيف الدين من فضوله وأفهمه أنه سيقص عليه كل ذلك، ولكنه لا يستطيع أن يروي ظمأه دفعة واحدة فالصبر .. الصبر .. فلم يطق ضيفه بالصبر ذرعاً وانطلق يستحث مضيفه الكريم أن يكمل حديثه فأكمل قائلاً :

– التفتت سلمي الي ما يشير والدها فما صدقت ما تري عبر دموعها وما ان جففت دموعها حتى رأت المشهد واضحاً جليا .. رأت سيف الدين يقف ممسكا بالطفلين علي سطح السفينة فمادت بها الدنيا من فرحتها ودارت وما أن فتحت عينيها حتى وجدت نفسها مستلقية في فراشها وقد التف الجميع من حولها .. إذن لم يكن ذاك حلماً .. ها هو سيف الدين وها هو الصبي نور الدين وها هي الصبية الفاتنة بثينة وها هو ابيها يقف الي جانبهم وقد التفوا من حولها يترقبون ان تفتح عينيها وما ان فتحت عينيها حتى ارتمى الطفلان عليها وراحا يقبلانها وتقبلهم وما علي لسانهما إلا :

– أمي .. أمي .. حمداً لله علي سلامتك يا أمي

اقترب سيف الدين منها وجلس بالقرب من فراشها وأمسك بإحدي يديها بين راحتيه فابتدرته قائله :

– أهكذا تفعل بي؟

– وماذا فعلت غير انني قد احببتك يا فاتنتي؟

– أوقد احببتني؟

– أو تسألينني؟ .. أما قرأت كل هذا الحب في عيني؟

– قرأت ولكنني لست أصدق نفسي

– أتتزوجينني؟

احمر وجها خجلا فزاد فوق جمالها جمالا واغمضت عينيها بينما تقول:

– كأنني أحلم .. وما أريد أن يوقظني من حلمي أحد

– أوأنتظر ردك خلال الحلم ام انتظر حتى تستيقظين؟

– أو تسألني؟ .. أما قرأت الرد في عيني؟

– قرأت ولست أصدق نفسي

طرأ هاجس على رأسها فجاة فزالت فرحتها دفعة واحدة وقالت:

– وكيف سنتزوج بينما نحن في عرض البحر؟

– لم احضرت الشيخ عز الدين ليسافر معنا علي متن السفينة في رأيك إذن؟

– أوأحضرت المأذون معك؟

– وأحضر لك الدنيا إن أمرتي

– ولكن أبي ..

تنحنح الأب وقد علت ثغره ابتسامة بينما يقول:

– أوكنت أسمح له بهذا الحديث ما لم يطلب يدك مني فأوافق مرحباً يا بنيتي؟

وعلت ضحكات الجميع حتى الصغار كانوا يضحكون وما يدرونلمَمَ يضحكون

– وهل تزوجتم بالفعل يا شيخنا ؟

– وقضينا أجمل شهر عسل على سطح السفينة في البحر

– وبعد؟

– بل وقبل؟

– قبل؟

– ألا تريد ان تعرف كيف غاب الصبي؟ وكيف عاد ومعه أجمل هدية قدمتها لي الأيام؟ قدمها لي هذا الصبي الشقي الذي اتهمته بقتل زوجتي وكأنه يعوضني باخري اجمل وأرق وأطيب

– بل أريد فزدني من حديثك يا شيخنا

* * *

في إحدي الليالي عدت الي المنزل ثائراً هائجا وكان طبعي انذاك قد تغير بعد وفاة زوجتي الاولي فكنت اتكلم بسوطي وليس بلساني فكان العبيد يتحاشون ان يقفوا امامي وما يجرؤ احدهم ان يناقشني في امر الا ويمضي وقد نال مني ما نال ولحقه من سوطي ما لحق وما ان دخلت من الباب حتى فوجئت بالصبي امامي وإلي جواره احد العبيد وقد تشبث الطفل بيده .. ووقفاً كلاهما مشدوهين لا يدريان في أي اتجاه يهربان فقد فوجئا بدخولي وإذا بالسوط ينزل علي ظهر العبد يلهبه ويشويه وانا أزأر كالأسد:

– أما قلت لكم أنني لا أريد ان أري وجه هذا الطفل المشؤم أمامي؟ .. اتغيظونني ؟

كنت في ثورة غضبي اضرب بالسوط شمالاً ويمينا اطوح به فيفر العبيد في كل صوب واتجاه هذا يسقط وهذا يتعثر واصابت احدي ضربات السوط الصغير وتوكت اثرها علي ظهره فبكي الصغير كما لم يبك من قبل ونظر في عيني بينما كانت عيناه ممتلئتان عتابا لي .. كانت عيناه تتهمانني صراحة بانني لا يمكن ان اكون عمه وانما انا شيطان والتقت عيني بعيني الصغير فانتابتني لحظة من الشفقة سرعان ما خبت وراء قلبي المتحجر فهززت رأسي انفض عنها تلك الشفقة المؤقتة وانطلقت الي حجرتي وانطلق الصغير يركض باقصي ما يستطيع وبقدر ما تسعفه قدماه الصغيرتان يركض خارجاً من المنزل تائها لا يلوي علي شيء وما انتبه له احد من العبيد وقد كان كل همهم آنذاك ان يتحاشوني ويتحاشون سوطي وكما انني ما رحمت الصغير كذا ما رحمته الطبيعة ايضا فما أن خرج من

المنزل الا والمطر يغرق طريقه والارض تسقطه في اوحالها وتآلف البرق والرعد في العزف علي أوتار خوفه حتى خال الدنيا وقد امتلأت وحوشاً وأشباحاً وأخذ يصرخ ويصرخ حتى رأي سلمي علي جوادها وبجوارها جارية قد امتطت جوادا آخر والي الخلف منهما اثنان من العبيد لحراستهما وكانت سلمي ابنه تاجر من كبراء مصر يدعي الشيخ ابراهيم المصري وقد كان يحمل البضائع من مصر فيمر بها علي الموانى والشطآن فيبيعها ويشتري غيرها حتى انه زار معظم بلدان العالم خلال رحلاته وما ان يعود برحلته الي مصر حتى يجهز لرحلة اخري وفي هذه الرحلات كان دائماً ما يصطحب ابنته سلمي ولا يطيق عنها بعداً ولما وصل الي البصرة فباع ما باع واشتري ما اشتري ألحت سلمي عليه ان يأذن لها بان تتنزه قليلاً في المدينة فسمح لها وعهد بها الي اثنين من العبيد لحمايتها وخرجت الصبية مصطحبة جاريتها والعبدين في نزهتها فأعجبتها المدينة جداً وزادت من سرورها ولما حل المساء وتغيرت احوال الطقس وبدات السماء تمطر وتبرق وترعد قررت العودة فورا وإذ بها في طريق العودة مع صحبتها عبر احدي الرياض الوارفة فإذ بها تجد طفلاً يصرخ وقد وقف في طريق جوادها وقد كانت ترتدي عباءة سوداء فوق ملابسها وكذا جاريتها واذا بالطفل وخوفه قد صورهم له وكانهم مجموعة من الوحوش قد اقتربوا ليلتهمونه وظل الصغير يصرخ ويصرخ فتنزل عن جوادها وتحاول ان تهدئ من روعه والطفل ما زال يصرخ ويصرخ حتى ألفته وقد فقد الوعي .. تماماً.

* * *

راحت سلمي تفتش في جيوبه علها تصل الي ما يرشدها الي اهله فما هالها إلا ان رأت أثار سوط ما كان يستخدمه إلا وحش أو هكذا خيل اليها فانهمرت دموعها واغرقت وجنتيها وتسآلت عن ذلك الوحش الذي لا رحمة في قلبه ولا خوف من الله وكيف جرؤ علي هذا الملاك الصغير؟ وكيف طاوعته يداه؟ لا شك ان بين قلوب البشر قلوب اشد قسوة من الوحوش ، تمتمت من بين دموعها قائله :

– لك الله ياصغيري

وعهدت بالصغير الي العبيد فحملوه معهم إلي السفينة واخذت تطببه وتداويه وقد كان في نيتها ان تسأل عن اهله في الصباح وما هالها الا والدها يهرول علي سطح السفينة ويصرخ بالبحارة ان يستعدوا وينشروا القلاع ويرفعوا الاشرعة فالرحيل الآن فورا وفي الحال وفي هلع اسرعت تهرول نحو ابيها تستمهله حتى الصباح .. اخبرته بما كان من الصبي وانه في حوزتها الآن ولابد لها من السؤال عن اهله ولكن الاب رفض الانتظار وطمانها بانهم عائدون الي البصرة قريباً حيث يكون امامهم متسع من الوقت للبحث عن أهل الصبي وأما اذا بقوا حتى الصباح فالهلاك نصيبهم .. وما زالت به تستعطفه علي الصبي وتلح عليه وتلح حتى نفذ صبره واستشاط غضباً ولم يشعر بنفسه الا ويداه تدفعان الصبية فتسقط علي سطح السفينة بينما يصرخ صائحاً بأعلي صوته :

– قلت لك ان ذلك غير ممكن .. ألا تفهمين ؟

نظرت إلي أباها في ذهول وكانها تراه للمرة الأولي في حياتها لم تكن تصدق ما فعل بل وكانها في حلم مريع بل انه كابوس .. أيمكن لرجل لم تر منه سوى الحب والحنان الجارف ان يفعل بها ما فعل ؟ لم تكن

تصدق ما حدث فانفجرت دموعها تغرق وجهها الجميل وانخرطت في بكاء مرير كانت تشعر بمرارة في حلقها .. راحت تهز رأسها وكانها تنفض عنه ما حدث ثم نهضت من سقطتها وانطلقت تعدو هاربة من أمامه وكان شياطين الدنيا تطاردها

ابتلع الشيخ نصر الدين لعابه في صعوبة وهو يتمتم في أسي :

– مسكينة ! .. ماذا فعلت حتى تنال هذا الجزاء ؟

– والله ما فعلت شيئاً يا شيخنا ولكن الحالة النفسية السيئة التي كان والدها فيها أفقدته صوابه

– وماذا بعد يا شيخنا

– الحديث آت يا صديقي ولكن الا تتم شرابك ام انه لا يعجبك ؟

– والله لقد اعجبني حديثك فاخذني من كل طعام و شراب يا شيخنا ومع ذلك فها هو الشراب

ومد يده يمسك بكوب الشراب وجرعه باكمله .. جرعه دفعة واحدة

* * *

اقترب الشيخ ابراهيم من ابنته فوجدها تبكي وتنشج وتذرف من الدمع ما اختزنت عيناها فربت علي ظهرها ثم احتضنها وضمها لصدره في قوة بينما يقول :

– اعذريني يا بنيتي .. انت تعلمين مدي حبي لك

– لم اعهد منك مثل تلك المعاملة قط يا أبي

– أسف يا بنيتي فما قصدت ان أجرحك أو أؤذي مشاعرك

استمرت في بكائها فأخرج منديله يجفف دموعها ثم ربت علي احد كتفيها في حنان قائلاً :

– لو عرفت يا صغيرتي ما انا فيه وما حدث لعذرتني وصفحت عني فما فعلت كان من شدة خوفي عليك

– مم تخاف علي يا أبي ؟

– الكثير يا بنيتي

قالت في قلق :

– ماذا حدث بالضبط يا أبي ؟

رمقها الشيخ إبرهيم في أسي وراح يقص عليها ما حدث وهي ترقب حديثه وقد ظهر علي وجهها الخوف والفزع فما انتهي الاب من حديثه حتى طفقت تقبل وجنتيه وتعتذر له

– سامحني يا أبي فما كنت اعرف ما حدث

– انا الذي أطلب منك السماح يا بنيتي

– انا لا يمكنني ان اغضب منك يا أبي

مسح دموعها بمنديله وهو يتمتم قائلاً :

– إذن فلتريني ابتسامتك جميلة فتفرحين قلبي يا بنيتي

ابتسمت من بين دموعها فاحتضنها أباها وراح يقبل وجنتيها ويضمها الي صدره أكثر .. وأكثر

* * *

– ولكن ماذا حدث مع الشيخ إبراهيم فيغادر البصرة بهذه السرعة ويحكم علي الصغير بالغربة والبعد عن الاهل؟

– رويدك يا شيخنا نصر الدين ففي بقية حديثي جواب لسؤالك

توقف سيف الدين لبرهة ليرى اثر حديثه في عيني صديقة وكانه يستمتع بالفضول في عيني الرجل ولكن الاخير ظل يستحثه مما اضطره للعودة الى روايته :

– جاء الشيخ ابراهيم الي البصرة بسفينته وقد حملها بالقطن المصري ذي الجودة العالية وما ان وصل الي البصرة حتى تهافت عليه التجار لشراء بضاعته فهذا يعرض سعراً وهذا يزيد عليه ليفوز بها حتى وصل ثمنها الي الضعف وهذا ما عرض عليه الشيخ حسام الدين البغدادي واتفقا علي الصفقة وكل منهما مرضي يمني نفسه بالربح الوفير واخذ الشيخ ابراهيم ماله وسلم بضاعته الي مشتريها وانصرف كلاهما أما الشيخ ابراهيم فقد اشتري بكل ماله تمراً من اجود تمور بلاد الرافدين وابتدأ في شحن سفينته بالتمر الذي اشتراه ولم يمضي يومان إلا وخمس سفن قد رست علي الشاطئ وكلها محملة بالقطن المصري وما ان رأي التجار هذا الكم الذي يرسو علي شواطئ بلادهم حتى أعرض الجميع عن الشراء خشية اغراق الاسواق فما يجنوا سوى الخسارة فاضطر اصحاب القطن الي بيعه باقل من نصف ثمنه وغرقت الاسواق بالقطن المصري وبنصف الثمن وما وجد من يشتريه واذا بالشيخ حسام الدين البغدادي يستشيط غضبا ويصول ويجول ظنا منه ان الشيخ ابراهيم المصري قد سبق بقية السفن عن عمد ليخدعه ويبيعه بضاعته بضعف ثمنها فإذا به يتهدده ويتوعده إذا لم يأخذ بضاعته ويرد له ماله وكان الشيخ حسام الدين ذا سطوة كبيرة في العراق إذ انه من عائلة ذات مال وجاه وكان من أبناء عمومته الوزير والقاضي وكبار رجال الدولة وكبار التجار فخاف الشيخ ابراهيم ان تتفاقم المشكلة

فأخذ يهدئ من روع الشيخ حسام الدين ويهادنه ويشرح له انه لم يكن علي علم بالسفن الاخري وانما قدم وحده ولحالة وما حدث لم يكن إلا من قبيل الصدفة والرجل لا يصدقه ولا يريد ان يصدقه ويسد أذنيه عن أغلظ الايمان التي أقسم بها الشيخ ابراهيم اثباتا لبراءته .. لم يكن امام الشيخ حسام الدين إلا ان يكذب صاحبه وإلا أفلس فما كان من أمل أمامه إلا ان يسترد ماله فتمسك برأيه وان كان قلبه الطيب وضميره اليقظ ينكر عليه ما يفعل وصور له الشيطان انه يدافع عن نفسه وبيته من الخراب فأعمي عينيه عن رؤية الحق وأغلق أذنيه عن سماع الصدق وأيده اصحاب المصالح في غيه وبغيه فإزداد عناداً على عناده وبغيا على بغيه مهدداً الشيخ ابراهيم بأقاربه من الوزراء والكبراء وما زال الشيخ ابراهيم به يجادله ويحاول اقناعه حتى استسلم لظلمه خوفاً من بطشه ولكن كيف السبيل لاعادة المال وقد اشتري به تمراً؟

عرض عليه ان يبادله القطن بالتمر الذي اشتري فما وافقه صاحبه وأصر علي تسلم ماله نقداً فالتمر في العراق مع كثرته أصبح لا يساوي ثمن نقله حسب رأيه فطلب اليه صاحبه ان يمهله حتى يبيع التمر فيعود إليه بثمنه فهاج وماج وأزبد وتطاير الشرر من عينيه متهما اياه بانه يحاول الهرب والنجاة بفعلته مهدداً إياه انه سيطاله ولو ذهب الي آخر بقاع الدنيا فطمأنه الشيخ ابراهيم واستمهله الي الصباح حتى يدبر له المال وراح يقصد كل من يعرف من التجار يعرض عليهم التمر فلما علموا بحاجته للمال ازدادوا تجبراً عليه وأعرضوا عن الشراء ثم عرضوا عليه ربع الثمن الذي اشتري به، وذهب إلي بعض أصدقاءه ليقترض منهم بعض المال حتى يخرج من أزمته فتنكروا له وأعرضوا عن مساعدته وكل يتحجج بان

ما لديه من مال قد استثمره واشتري به بضاعة وليس لديه مال سائلولعلمهم بعدم حاجته للبضاعة يعرضونها عليه :

– خذها وفك بها أزمتك

فما كان منه إلا ان شعر بمرارة وغصة في حلقه تكاد تخنقه وتكتم انفاسه فسار في الطريق لا تكاد ساقاه تحملانه فيمشي حينا ويتعثر حينا وتنهمر دموعه حينا .. ان الازمات تظهر الصديق .. فيا رباه ! ألم تهبني في هذه الدنيا صديق واحد يربت علي ظهري ويخرجني من ورطتي وينقذني من أزمتي ويفرج كربتي؟ .. ألم أرفض كل مال حرام حتى أربي ابنتتي من مال حلال لا تشوبه شائبة ؟ فلماذا يحدث ذلك؟ لماذا يضيع مالي وتعب السنين ظلما ؟ ألم انجد الكثيرين ؟ والله ما رددت أحدا أقبل علي إلا وانجدته ورددته مجبور الخاطر فلماذا لا ينجدني أحدهم؟ لماذا يتنكر لي الجميع؟ اتكون تلك النهاية المفجعة نهايتي فأقضي بقية حياتي في السجن بعد ان يضيع مالي؟ أوأترك ابنتي تواجه مصائب الزمان بغير مال أو رفيق ؟ ماذا جنت المسكينة ؟ وماذا جنيت انا ؟.. يعلم الله انني برئ .. ما خدعت أحداً .. وأخذ الشيخ يتحدث الي نفسه طوال الطريق الي السفينة وما ان اعتلى ظهر سفينته حتى اسرع يهتف بعبيده ان يعدوا القلاع ويرفعوا الاشرعة فالرحيل الآن والتأجيل محال وانطلقت السفينة تشق طريقها وتمخر بين الامواج

– إذن فقد هرب الشيخ ابراهيم يا شيخ

– أوشيخ في اخلاقه ومبادئه يفكر في الهرب يا شيخنا؟

– إذن فلماذا رحل ولم يواجه مصيبته؟

– وماذا لو كنت مكانه يا شيخنا ؟ .. ماذا لو كنت مكانه

* * *

لم يكن أمام الشيخ ابراهيم بارقة أمل أو مخرج غير ما فعل فاضطرته الظروف ان يهرب حتى يتدبر امره عاقداً النية علي بيع حمولة سفينته من التمر فاذا فاز بالمال ارتد الي البصرة ليبادله بقطنه وقد عزم ان يبيع القطن في بلد آخر ولم يجد بارقة أمل في الخروج من مصيبته غير ما رأي فإتكل علي الله ومضي في طريقه وتوقف في كل ميناء وقعت عليه عيناه ولم تشأ الدنيا ان تفك عنه حلقاتها فلازمه سوء الحظ فلم تلق بضاعته رواجاً ففكر وتدبر وصمم ألا يبيعها إلا في مصر المحروسة وأبحر من ميناء الي ميناء حتى وصل إلي مصر فكان الفرج فيها فوصلها قبل بداية شهر رمضان بأيام فأقبل التجار علي تمره يعرضون عليه أضعاف ثمنه ويتخطفون بضاعته فعاد الي منزله مجبور الخاطر وطلب الي ابنته أن تجهز نفسها للسفر في الغد الي البصرة ليرد للشيخ حسام الدين ماله وفرحت سلمي بعودتها الي مصر وكان نور الدين ما يزال معها فتعلقت به وتعلق بها وكانت تلاعبه وتداعبه فما كان من الصغير إلا ان يدعوها أمي قبل ان تطلب منه فما كان أشد فرحتها حتى بات كل ما تتمني من الدنيا ألا تعثر له علي أهل فيظل معها ولكن ضميرها أبي عليها ان تظلم الصغير فتبعده عن اهله كفاه ستة اشهر قد مضت خلال رحلتها مع والدها من البصرة وستة اشهر اخري قد تمر حتى يعودا لقد ابعدت الصغير عن اهله عاماً بتصرفها .. ليتها تركته مع عابر سبيل في البصرة ليبحث عن اهله ويعيده ولكن أكانت تأمن على الصبي مع احد في زمن يباع فيه الانسان ويشتري كالدواب ألا يمكن ان يبعه او يقتله أو يعذبه وتذكرت حينذاك آثار السوط علي ظهر

الصبي فضمته الي صدرها أكثر وأكثر والصغير يلهو حينا ويلعب حينا ويضحك حينا فتبتسم له وتداعبه فيزداد ضحكاً ومرحاً

– يا الله هذه الضحكة الخلابة تجعلني أتعلق به اكثر واكثر .. ليتني لا أجد له أهلاً !

وتحتضن الصغير وتداعبه من جديد فتستمتع بموسيقي ضحكاته المكركرة ثم تضعه بجوارها الي الفراش تهدهده حينا وتحكي له الحكايات حينا حتى يغلبه النوم ويغلب عينيها أيضا فتستلقي الي جواره من شدة التعب وتحلم انها تحمل الصبي بين ذراعيها وتطرق كل ما يقابلها من ابواب وتسأل عمن يعرف الصبي وفجأة ينفتح أمامها احد الابواب ويظهر خلفه مسخ آدمي على صورة وحش تبدو عليه الشراسة يمد يده نحوها يريد خطف الصبي من بين ايديها فتصرخ وتجري بالصبي والوحش خلفها يطارها في اصرار وتحاول الافلات منه فما يزداد الا عناداً ورغبة في الامساك بها وخطف الصغير منها وراحت تجري داخل غابة من الاشجار وما تسمع داخلها غير حفيف الاشجار وتجري وتجري وما يهالها إلا والوحش امامها يسد عليها الطريق ماداً ذراعيه يطلب الصغير فما كان منها الا ان تصرخ وتصرخ :

– لا !!!!!

يختطفه الوحش من بين يديها فما تزال تمسك بقدمي الصغير لا تفلتهما فيجرها عبر ارضيه الغابة يسحلها فتأبي ان تتركه وهي تصرخ في لوعة:

– ابني .. ابني .. ابني .. و..

وتستيقظ من نومها فزعة فتجد نفسها ما تزال تصرخ :

– ابني .. ابني

وإذا بالجارية تعدو مهرولة الي الحجرة فتهدؤها :

– لعله حلم يا سيدتي فإهدئي

وتناولها كوبا من الماء فترتشف منه رشفة ثم تنظر الي الصبي في حنان فتجده نائماً مطمئناً إلى جوارها فتتمتم :

– حمدا لله .. حمدا لله

* * *

ما ان لاح الفجر في الأفق حتى خرج الشيخ ابراهيم من منزله قاصداً سفينته الراسية كان ينوي ان يسدد ما وعد به أولاً إلي الشيخ حسام الدين ويسترد بضاعته ليبعد عن نفسه الشك ويتقي ظلمه فاعتلي سفينته ومعه ابنته ونور الدين الذان اصطحباه للبحث عن أهله فما كان يريد من رحلته تلك سوى الخير فإذا أتم ما أراد انصرف الي تجارته وما ان اعتلي ظهر سفينته حتى احاط به الجند من كل صوب واتجاه ورئيس الشرطة يقول في تهكم :

– أتريد ان تهرب ثانية يا سيف الدين ؟

– ولماذا أهرب يا سيدي ؟ فماذا فعلت ؟

– سل نفسك يا رجل؟

– ولكن يا سيدي ؟

– لا أريد كلمة واحدة!

– ولكن..

– ولكن ماذا ؟ .. قلت لك ألا تتكلم إلا امام القاضي بالقاهرة فبلادنا بلاد العدل وستأخذ حقك ..

وصمت برهة ثم استطرد في سخرية قائلا :

– هذا ان كان لك حق

– لكن ياسيدي ..

وجهرئيس الشرطة حديثه الى الجند قائلا بلهجة آمرة :

– خذوه مكبلاً بالحديد يا رجال

ويكبله الحرس بالأصفاد ويصطحبونه وسلمي تصرخ وتولول والصغير يبكي وينشج.

– أبي .. أبي .. أرجوكم خذوني معه

– انتظريني في المنزل يا بنيتي فسيظهر الحق وسأعود

– أبي .. أبي

وتغرق وجنتيها بدموعهاً ويصطحب الجند الرجل معهم بعيدا وتصرخ وتصرخ ولكن ما من مجيب .. مطلقا

* * *

– ولكن لماذا قبضوا عليه يا شيخنا؟

– سأخبرك كل شيء في الغد يا شيخنا

– بل الآن يا رجل

– ولكن الوقت قد تأخر و ..

– ولو .. ستخبرني الآن يا شيخنا

– حسنا كما تريد ..

فغر الشيخ حسام الدين فاه في دهشة وألم وهو يصرخ في عبيده :

–كيف هرب منكم ؟ .. أما أوصيتكم ان تراقبونه وتراقبون سفينته؟

– لكن يا سيدي ما كدنا نصل الي الشاطئ فما وجدناه وما وجدنا سفينته .. لقد تأخرت في القاء أوامرك

– ايها الاغبياء .. لقد جعلتموني أبدو أبلها .. ويلكم مني

– ولكن ما ذنبنا ياسيدي ؟

صرخ بهم في غضب هادر :

– اغبياء .. اغبياء

– ولكننا ما أهملنا يا سيدي

– إذن فانا المهمل ..

وأمسك بسوطه وألهب ظهورهم واجسادهم وهم يتعثرون ويتخبطون ويركضون في كل صوب واتجاه فما يزداد عليهم إلا قسوة وهم يصرخون :

– ارحمنا يا سيدي

بينما هو يصرخ :

– كيف أرحمكم ولم ترحموني؟ .. ها قد أفلست بسبب غبائكم وستباعون جميعاً في سوق الرقيق سداداً لديوني .. ولكن قبل ذلك سأذيقكم من العذاب كؤساً وكؤسا

ويهدأ قليلا ثم يستطرد هاتفا في غضب هادر :

– ولكن لا .. لن ينال المصري مني .. لقد خدعني وخانني .. ويل له مني .. الويل له كل الويل

نهض أحد العبيد واقفاً من سقطته وحاول التسلل مبتعدا ولكن حسام الدين دعاه بينما يشير بسبابته نحوه قائلا :

– انت ..

أشار الرجل إلى نفسه قائلا :

– انا يا سيدي ؟

– نعم أيها الغبي أنت .. فلتجهز الركائب للذهاب الي ابن عمي وزير بغداد

وجهزت الركائب وانطلق الشيخ حسام الدين في طلب الوزير الذي استقبله بكل حفاوة وإجلال وأفاض في إكرامه وسمع منه وعرف حكايته ثم طمانه بعد ان هاج وماج واستنكر ان يحدث لإبن عم الوزير ما حدث واعتبر ذلك إهانة لشخصه وتحقيراً لشانه فأرسل في الحال برسالة عاجلة إلي صديقه وزير مصر يشرح له ما تعرض له ابن عمه من الخديعة والغدر ويسأله باسم الصداقة ان يثأر له ولابن عمه ووصل الرسول مصر بعد أن باع الشيخ ابراهيم بضاعته وهم بالرحيل إلى البصرة فورا ليرد للرجل أمانته وما ان اعتلى سطح سفينته حتى ظنوه يحاول الهرب واحكموا قبضتهم عليه واصطحبوه الي القاهرة مكبلا بالحديد والأغلال

** *

انهمك القاضي في تصفح ما أمامه من أوراق وصكوك ثم زفر في ضيق وبدا عليه التعب والإرهاق وتمتم قائلاً :

– يا إلهي .. لقد مللت كل الأوراق

سمع طرقاً علي بابه فنظر نحوه بينما يقول :

– ادخل

دلف أحد الجنود الي داخل الغرفة وأقترب منه ثم قال :

– سيدي لقد قبضنا علي سيف الدين وها هو مكبل بالإغلال

قال في اهتمام واضح :

– أحضروه فوراً وكونوا علي حذر فهو مجرم خطير

خرج الرجل وعاد وخلفه مجموعة من الجنود يحيطون بسيف الدين وقد كبلت يداه ورجلاه بالإغلال حتى يكاد يمشي بصعوبة بينما تصطك قيوده ببعضها فتصدر قرقعة مزعجة و ..

– إذن فانت سيف الدين؟

– نعم يا سيدي

– فماذا فعلت أيها التعس؟

– والله ما فعلت شيئاً يسؤك مني أو يسوء أحداً فانا مظلوم يا سيدي

– إذن فنحن الظالمون؟

– اسمعني يا سيدي اسمع حكايتي لتتبين براءتي واضحة جليه

– أوتظنني أضيع وقتي في سماع حكايتك ؟ .. أصديقك انا ولا أعلم ؟

واشار إلى كم من الصكوك امامه وهو يستطرد قائلا في غضب:

– أما تري كم القضايا أمامي ؟

– ولكن يا سيدي كيف تحكم علي بعدلك ما لم تسمع حكايتي ؟

– اسمع يا سيد.. يا سيد ..

– إبراهيم .. ابراهيم يا سيدي

– إسمع أيا ما كنت ياسيد إبراهيم .. انك لن تجد عدلاً في كل الارض كما تجد هنا فقضاتنا هم العدل وقد تجسد يمشي علي الارض وخاصة في عصرنا هذا وهو أزهي العصور كما تعلم

– أعلم يا سيدي، ولكن لتسمع حكايتي لأدافع عن نفسي وأثبت براءتي

– اسمع يا سيد إبراهيم فلترد المال الذي سرقته من السيد حسام الدين حتى نخفف الحكم عنك

ثم استطرد قائلا في خبث :

– هل علمت الآن انني على دراية بحكايتك بأدق تفاصيلها؟

– والله يا سيدي ما سرقت شيئاً

– آه .. ما دمت قد أقسمت يا سيد إبراهيم فانا أصدقك .. ان وجهك فعلاً يوحي بالبراءة والصدق ولكن لماذا يدعي عليك الشيخ حسام الدين بسرقة خمسين ألف دينار؟

– والله يا سيدي ..

– آه.. ها قد اقسمت ثانية فانا الآن علي يقين من صدقك

ثم يمسك بإحدي الاوراق امامه ويكتب عليها بينما يردد ما يكتب بصوت عال :

– يلزم بدفع مائة ألف دينار الي السيد حسام الدين كتعويض عما أصابه من أذي ويلقي السيد إبراهيم بالسجن الي ان نبت في امره

ثم اشار إلى الجنود قائلا :

– إذهبوا به .. خذوه

أحاط به الجنود فصرخ قائلاً :

– مظلوم يا سيدي .. أقسم بالله مظلوم

– ها قد أقسمت مرة ثالثة .. خذوه من امامي .. خذوا هذا المجنون

* * *

نهض الوزير يرحب بضيفه ويستقبله استقبالاً حافلاً ومد يده إليه مرحباً ثم صافحه في قوة وهو يقول :

– مرحبا بقاضي قضاتنا الهمام

– شكراً لهذه المجاملة الرقيقة يا سيدي

– ليس في الموضوع مجاملات يا سيد فخر الدين

– هل تعني ..؟

– نعم لقد أصدر مولانا الأمر صباح اليوم فأصبحت قاضي القضاه رسمياً

انطلق الرجل يقبل يد الوزير تغمره الفرحة بينما يقول :

– اشكرك ياسيدي .. لن انسي فضلك ما حييت

– فماذا فعلت في قضيتنا تلك؟

– كل ما أردت ياسيدي وكما حكمت انت بعدلك

– إذن فلك الشكر منا يا قاضي القضاه

ولكن أين صك الحكم ؟

مد يده اليه بالصك بينما يقول :

– ها هو يا سيدي ..

مد الوزير يديه يتسلم منه الصك في عجلة ثم مزقه الي قطع صغيرة وهو يقول :

– لا ينبغي ان يعرف احداً شيئاً عن ذاك السجين وما ينبغي ان تكون هناك أوراقاً تدل عليه

– أمرك يا سيدي

– ولكن أريد ان يكون ضميري مطمئنا أريد أن أنام مرتاح الضمير .. ولكن كيف؟

بدا عليه التفكير للحظات ومالبث أن استطرد قائلا:

– أريد ألا اسمع عنه ثانية أريد ان انساه تماماً

– أمرك يا سيدي

– الآن يمكنني ان انام مرتاح الضمير

– وهل كل قضاة مصر منزوعي الضمير هكذا يا شيخنا؟

– كيف تسأل هذا السؤال يا صديقي؟

– ولماذا لا أسأل ؟ ألا اشبع كل ما في نفسي الي المعرفة ؟

– يا شيخنا كما تدري فكل فئة من الناس بها الصالح والطالح وبها الخبيث والطيب ومصر بها العديد والكثير من القضاه الذين أعلوا فيها كلمة الحق وما رضوا ظلماً ولا رشوة وليس هذا في مصر وحدها وانما في كل العالم

– إذن فهو الشيطان

– بل قل هو الانسان يا شيخنا فما وجد البشر إلا ووجد الشر كما وجد الخير .. أي نعم هو الشيطان يوسوس في صدور الناس، ولكن ليس له سلطان عليهم فمنهم من يسمع ويطيع ومنهم من يأبي ان يطيع إلا الله

– أوجزت فأحسنت يا شيخنا

– والان يا شيخنا العزيز

– الآن ماذا؟

– ألا تبتغي نوماً يا شيخنا؟

– والله لولا اني أخشي ان أشق عليك ما نمت وما تركتك لتنام

– إذن فإلي النوم ولحديثنا بقية يا صديقي

– ولكن لي سؤال واحد يا شيخنا

– غداً يا عزيزي .. فان غداً لناظره قريب

* * *

كاد القلق يقتل سلمي فتركت الصبي نور الدين مع الخدم والعبيد وراحت تبحث عن أبيها في كل مكان فما دلها أحد وما روي ظماها لمعرفة الحقيقة من أحد ودارت تسأل في كل مخفر للشرطة فما وجدت من مجيب كل يرسلها لآخر وهذا يرسل لذاك حتى وصلت إلي القاهرة وانتهت إلي دار القضاء وهنا انقطعت الاخبار وما عثرت لابيها علي أثر وما عرفت ان كان حيا أم ميتاً ان كان سجينا أم طليقاً فمن اني لها ان تعرف؟

وما وجد أحدهم ورقة أو حكما يحمل معلومة أو خبراً فعادت الي ديارها بعد ان سلمت الي الله امرها واحتضنت الصغير فكانت له كل شيء الأم، والأب وأعطته كل الحنان فزاد الصغير تعلقا بها حتى انه نسي انها ليست امه وما يذكر الا انها الام الحنون واحبها الطفل بجنون فاستماتت في حبه حتى نسيت به غياب والدها ومرت الايام وهي تلعب مع الصغير وتداعبه وتتسمع ضحكاته فتشفي جراحها وتنسيها مصائبها وتري ابتسامته فيسعد قلبها .. ولكنها كانت تتمني ان تعرف اين والدها ولو وهبت لمن يدلها كل ما تملك لكانت قانعة راضية كانت تتنسم أي خبر عنه فما وصلها من أخباره خبراً وكان الارض قد انشقت وابتلعته ومرت الايام بطيئة متانية وكانها لا تريد ان تمر .. مر شهر يتبعه شهر حتى مر عام بأكمله .. وذات يوم رفعت سلمى عينيها وإذا بالشيخ ابراهيم أبيها مقبل من بعيد وإذ بها

تلقي ما في يديها وتجري متهللة ترتمي في حضنه وتقبل وجنتيه وتبلل بدموعها وجهه ويبلل وجهها بدموعه و ..

– أبي .. لا أصدق انني أراك ثانية؟

– الحمد لله يا بنيتي .. لقد مرت أيام العذاب

– لا تدري كم تعذبت في بعدك يا أبي

يقبل وجنتيها وهو يقول :

– سامحيني يا بنيتي

– علام أسامحك يا أبي أوكان الأمر بيدك ؟

– لم يكن يعذبني وانا سجين غير قلقي عليك يا بنيتي

– وانما عذابي كان لبعدك عني يا أبي

– حمدا لله أنك بخير يا بنيتي فما رأيتك حتى زال عذابي دفعة واحدة

– حمداً لله علي سلامتك يا أبي .. لابد وانك جائع سأعد لك بيدي كل ما تحب من طعام يا أبي

– أشكرك يا بنيتي فانا جائع إلي النوم

– إذن فلتسترح قليلاً يا أبي وما ان تستيقظ حتى أجهز لك الطعام

* * *

ما أن مر يومان علي خروج الشيخ إبراهيم من السجن حتى اخبر ابنته ان تستعد للرحيل معه خلال ايام ليستانف تجارته ويرد امانته

– ايه أمانة تقصد يا أبي ؟

– الصبي يا بنيتي أو ليس أمانة عندنا ؟

تغير وجهها وكانها قد افاقت فجأة من حلم جميل وقالت في حزن :

– بل هو أمانة يا أبي

– لكم أسانا للصبي بإحضاره معنا وإبعاده عن أهله يا بنيتي

– ولكن الأمر ليس بأيدينا يا أبي

– لو تركناه لمن يبحث عن أهله لما حدث ما حدث وما بعد عن أهله عاما ونصف العام والله أعلم كم يمر حتى نصل الي البصرة

– وانما الأعمال بالنيات يا أبي

– ولكن يا بنيتي كلما أذكر ان كل تفكيري كان منصباً علي الهروب من قدري فما رأيت مأساة هذا الصغير ما ازداد الا احتقارا لنفسي

– ولو أدركنا الغيب لاخترنا الواقع يا أبي

– حقا .. قد تكون تلك هي إرادة الله يا بنيتي

– هي إرادة الله حقاً يا أبي

– ونعم بالله يا بنيتي

وقبل جبينها وتركها وانطلق ليتدبر أموره وتجارته ويحمل سفينته ببضائعه وما ان مرت خمسة أيام حتى كانت السفينة تحفر طريقها وسط الامواج وتتمايل وسط الرياح قاصده بلاد الله العامرة .. بلاد الرافدين .. بلاد العراق مهد الحضارة، حيث عبق التاريخ وازدهار الحاضر ووصلت السفينة الي البصرة بعد ستة اشهر كاملة من الجهاد مع موج البحر وهبوب الرياح والعواصف والتوقف في هذا الميناء وذاك وتبادل البضائع والربح والخسارة وما أن استقرت علي شاطئ البصرة حتى انطلق العبيد منها الي كل انحاء المدينة يبحثون عمن يدلهم عن أهل لطفل قد اختفي منذ عامين ولم يجدوا صعوبة في ذلك فمنذ عامين وما ترك سيف الدين وعبيده داراً في المدينة إلا طرقوها وسألوا عن الطفل بها حتى شاع خبر

الطفل واشفق الجميع علي سيف الدين لما حدث له من تبدل الحال وتحول الخير بداخله فاصبح جميع اهل المدينة يبحثون معه ويتمنون عودة الطفل حتى ان عبيد الشيخ ابراهيم ما سألوا أحداً عن طفل تائه منذ عامين حتى كان جوابه :

– لعله طفل الشيخ سيف الدين

وكأن ما من طفل غائب في المدينة سواه وفي ذات اليوم اصطحبت سلمي الطفل معها وذهبت تسأل عن منزل الشيخ سيف الدين، وترى أثر رؤية الطفل عليه فما ان رآه العبيد مع الفتاة حتى ركضوا والفرح يذغرد في وجوههم يبشرون سيدهم فكان ما كان من الاحداث التي انتهت بالفتاة وإذ بها عروس كأجمل ما تكون العروس لفارس من أعز الرجال وها هي تقضي معه شهر العسل علي سفينة والدها وبقلبها فرحة لا تدانيها فرحة وسعادة لا تضاهيها سعادة وعاشت شهراً ما ذاقت من طعم السعادة طوال حياتها مثلماً ذاقت خلاله.

– ولكن يا شيخنا كيف تحرر أبيها من سجنه وقد محا الوزير كل ما يخصه حتى أوراق محاكمته

– ذاك ما سأحدثك به الآن يا شيخنا

* * *

ما ان حكم القاضي علي الشيخ إبراهيم حكمه الرهيب الذي استمده من عدالة الوزير ذو الضمير اليقظ حتى اصطحبه الحرس وسافروا به الي الميناء ليحضر المال وكان قد اخفاه في السفينة وما ان اخذوا المال حتى عادوا به الي القاهرة، حيث سجن في قبو سجن رهيب لا تدخله الشمس

أبداً تفوح منه رائحة عطنه عفنه يضيئه بصيص خافت من الضوء يتسلل متذبذباً من المشعل الوحيد الموجود في الردهة الرئيسية فما يكاد المرء ان يري نفسه داخل زنزانته وما ان اغلقوا عليه زنزانته حتى انتابته الهواجس وغزته الظنون فظل يفكر في ابنته .. تري ماذا ستفعل من دونه ؟ .. أو تستطيع ان تواجه الحياة بمفردها ؟ .. تري أهي بخير؟

لابد وانها تبحث عنه في كل مكان .. اتعرف ما حل به ام لا ؟

ومرت الايام وما انسته ابنته وما اوجدت حلاً لمصيبته لم يكن يعرف ليلاً من نهار ولا يحسب ما مر به من الايام وزاده يأسه حزناً علي حزنه وظل في ظلام زنزانته ينتظر فرج الله فما يأتيه .. لم ير انسانا خلال فترة سجنه قط حتى سجانه ما رآه قط مذ أغلق عليه بابه كان يضع له وجبة وحيدة كل يوم من فتحة باسفل الباب .. كان يتسمع وقع الاقدام لعلها تأتيه بحل لمصيبته فإذا به نزيل يائس جديد يحل بإحدي الزنازين فما يسمع إلا صوت الاقفال وكان كل يوم يمر يزيده يأساً علي يأسه حتى مر عام فيأس من حياته وبدأ يفكر في انهاء حياته بيده ثم ما يلبث ان يستعيذ بالله ثم تهاجمه الفكرة من جديد ثم يتذكر ابنته فيراوده الأمل من جديد فينبذ الفكرة ويستعيذ بالله ثانية واستمر الصراع يدور بداخله فتارة يؤيد الانتحار وتارة يستعيذ بالله وما ان وصل إلي قمة اليأس وعزم أمره علي انهاء حياته بيده وإذا بباب زنزانته يفتح فيغلق عينيه في شدة ليتحاشي ضوء المشعل المفاجئ الذي يحمله الحارس الذي نظر اليه وهو يقول في صرامة :

– معي أيها السجين

– إلي أين؟

قال متهكما :

– لا أدري ربما قرروا اعدامك أو قد يكون القاضي قد تاق الي رؤياك

نهض من مكانه يتبع الحارس بينما يتمتم :

– ماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها ..

انطلق الشيخ ابراهيم ومعه الحارس الذي استأذن من القاضي ثم ادخله إلي الغرفة لم يكن القاضي بمفرده هناك كان معه شيخ وقور لم يتبين ملامحه جيدا ، وإذا بالشيخ يمسك بإحدى يدي الشيخ أبراهيم وما يزال بها يقبلها ويغرقها بدموعه متضرعا إليه ان يصفح عنه و ..

– من انت يا سيدي؟

– أونسيت من ظلمك يا شيخ ابراهيم

– أوانت الشيخ حسام الدين؟ .. لقد تغيرت كثيراً فوالله مع عرفتك

– انه ذنبي تجاهك يا سيدي .. المهم أن تسامحني وتصفح عني

وأمسك بيده يقبلها ثانية ويغرقها بدموعة وانحني الي الأرض يقبل قدماه فانحني الشيخ ابراهيم يأخذ بيده ويرفعه عن الارض بينما يقول:

– والله ما غضبت عليك قط يا صديقي، لقد تفهمت موقفك فقد كان لك عذرك

– إذن سامحني وأرحني

– انني اسامحك يا شيخنا

ارتمي الشيخ عليه يحتضنه ويقبل وجنتيه بينما يقول:

– ذاك المتوقع من كريم ذي أصل كريم

– ولكن لتعلم يا سيدي انني ما هربت وانما اردت فرصة لأتدبر المال وأرده إليك

– إنني متأكد يا شيخ ابراهيم .. إنني المجرم وقد اعماني غضبي فما رأيت إلا ما في مصلحتى ولكن الله قد انتقم لك مني

– استغفر الله لا تقل ذلك يا شيخنا

مد يده اليه بصرتين من المال بينما يقول :

– هاك مالك عندي مائة الف دينار ومثله تعويض عما اقترفت في حقك

– لن أخذ غير حقي يا سيدي

– والله لو لم تأخذ المال ما سامحني الله وما عفا عني

مد الشيخ ابراهيم يده يتسلم المال وشكر الشيخ حسام الدين وشرد قليلا في أيام العذاب التي مر بها بينما يتمتم يشكر الله العادل الذي لا ينسي مظلوماً وأفاق من شروده فجأة علي يد قاضي القضاه وقد وضعها علي أحد كتفيه بينما يقول:

– ارجو ان تعذرني يا سيد ابراهيم وتتقبل اسفي .. انت تعلم ان القضية قد تدخل فيها الوزراء فاصبحت سياسية تدخل في علاقات الدول فما كان يسعني الا تنفيذ الاوامر

– لا عليك يا سيدي ولكن القاضي العادل ..

قاطعه الرجل في صرامة :

– لا عليك يا سيد ابراهيم إلا اذا كان سجننا قد اعجبك وتبغي ان تستزيد منه و ..

– لا يا سيدي .. كفاني ما عانيت

– يمكنك ان تذهب الآن

وانطلق الشيخان خارجين وهما يتعاتبان حينا ويتسامران حينا ودعا الشيخ ابراهيم رفيقه ان يسافر معه الي الميناء حيث منزله ليستضيفه طوال مدة

اقامته في مصر، ولكن الشيخ حسام الدين اعتذر له ببعض مشاغله وتواعداً ان يلتقيا عند السفينة بعد عدة أيام ليسافرا الي البصرة معاً وتركه الشيخ إبراهيم وانطلق نحو الميناء، حيث ترك قلبه لدي ابنته يدفعه الحنين والشوق اليها

– إذن فما الذي احدث هذا التحول الغريب في قلب الرجل يا شيخنا؟

– سأجيبك يا شيخنا نصر الدين بعد ان نشرب معاً مشروباً ساخناً

وشرع سيف الدين يستدعي الخدم و ..

– لكم تعذبني بكرمك يا شيخنا

* * *

ما ان نقل العبيد خبر هروب الشيخ ابراهيم من الميناء بسفينته حتى استشاط الشيخ حسام الدين غضباً وتطاير الشرر من عينيه وكان منه ما كان من شي ظهورهم بسوطه وتحميلهم مسئولية إفلاسه وانطلق الي بغداد حيث قابل ابن عمه الوزير فكان منه ما كان وما ان عاد إلي البصرة حتى انتابته الافكار والهواجس وأخذ يفكر في حاله وما حل به من الخراب كانت تسيطر عليه فكرة الانتقام ولكن ضميره كان يبكته ويوحي اليه بان الرجل مظلوم ومرت عليه الايام تضيق من حلقاتها حوله فما يزداد إلا بغضاً وحقدا علي الشيخ ابراهيم .. وما ضاقت حلقاتها الا وفرجت فبعد فترة من الزمن وبينما أوشك علي الافلاس فما يجد في بيته طعاماً بعد العز والوفرة واذا بالوزير ابن عمه يستدعيه ويهدئ من روعه ويفرحه بالنيل من عدوه ويسلمه مائة ألف دينار بدلاً من خمسين دفعها كتعويض له ارسلها صديقه وزير مصر وهي قيمة الغرامة التي دفعها الشيخ ابراهيم فاذا بالفرحة

تعم قلبه ويعود الي وجهه البشر والابتسام وما هي الا ايام حتى نسي الشيخ ابراهيم ونسي ايام بؤسه وانشغل في تجارته فتضاعفت امواله وفاضت مخازنه ومرت الأيام واذا به يسمع خبراً ان ثلاثاً من السفن كانت محملة بالقطن وقادمة الي البصرة هاج عليها البحر وتكاثرت عليها الامواج وما تركتها إلا حطاماً وما نجا من بحارتها أو تجارها أحد وقد كان علي متنها اكبر تجار للقطن ولم تمض ايام قلائل حتى شح القطن، وبحث عنه تجار البصرة بأي ثمن وإذا بالشيخ يذكر مخازنه المليئة بالقطن الذي اشتراه من الشيخ ابراهيم فلما انخفض سعره وما وجد من يشتريه نسيه وها هو يتحول إلي ذهب .. ذهب أبيض .. نعم هو الذهب فما فتح مخازنه حتى تهافت عليه التجار من كل صوب واتجاه ذاك يعرض سعراً وآخر يزيد حتى باعه باضعاف ما اشتري وما ان اخذ المال ووضعه في خزائنه وذهب الي فراشه ليستريح حتى استيقظ ضميره فما تركه للنوم أو الراحة .. أوليس هذا القطن هو ما فكر انه شر فظلم به انساناً بريئاً هو علي علم اليقين من براءته ونزاهته؟ .. ها قد تصوره شراً فإذ به خيرا يعم عليه .. كان أجدر به ان يشكر الرجل لا ان يتسبب في سجنه .. لكم يتصور الانسان ان ما يحدث وبالا عليه فإذ به يكتشف ان ما يحدث كان لخيره .. يا لهذا الانسان انه لا ينظر إلا تحت قدميه ولا يثق في مشيئة الخالق فأين الايمان بالله وقدرته؟

منذ ذلك اليوم لم يذق الشيخ حسام الدين طعما للنوم أو الراحة وما تركه ضميره يهنأ بكسرة خبز فانتابه المرض وأقعده أسير الفراش لا يستطيع من شدة المرض حراكاً حتى ذبل جسده وظهرت عظام وجنتيه واذداد نحولاً ونحولاً وحار الأطباء في مرضه لا يجدون له دواءاً أو ترياقا واستبد به

المرض حتى غير ملامحه فلم يعرفه اقرب الناس اليه وراحت زوجته تعالجه وتطببه وتطيب خاطره وتحاول ان تدفعه للحديث فلا يستطيع وقد اصاب لسانه الشلل لسانه فيجيبها المسكين بدموع غزيرة تحفر مع الايام مجرا لهاًاً علي وجهه فلا تدري المسكينة لدموعه سبباً .. وما كان لدموعه سببا سوى صوت ضميره بداخله كان ينكر عليه ما فعل وهو الرجل التقي أيعميه غضبه الي هذا الحد؟ أيفقده رشده فيتسبب في سجن صديق له كثيراً ما وقف الي جانبه وفرج كربته وكثيراً ما انجده في كثير من المحن؟ .. ما طلب منه طلباً الا ورده مجبور الخاطر .. تذكر يوم احتاج ان يقترض منه مالا ولم يكن الشيخ ابراهيم معه مالا لانه قد اشتري به بضاعة كان علي وشك ان يرحل بها فاذا به يؤجل سفره ويدور علي اصدقاءه يقترض منهم المال ليقرضه اياه ولما خزله الاصدقاء ما كان منه إلا ان باع بضاعته بالخسارة لينجده ويفك أزمته .. يا لبؤسي .. أهكذا افعل مع انسان يملك كل تلك الشهامة والنبل ؟ .. لم يرحمه ضميره ذكره بكل موقف نبيل قام به الشيخ ابراهيم معه فزرف من الدمع كل ما اختزنت عيناه على مدى اشهر كاملة ما تركه فيها المرض لحظة واحدة وما ترك خلالها الدعاء في سره الي الله ان يصفح عنه ويخلصه من مرضه ليس من اجله فهو لا يستحق الرحمة وانما من اجل هذا المسكين الملقي في السجن وما ان دب قليل من العافية في جسده حتى قام يصلي ويشكر الله وانطلق من فوره الي ابن عمه الوزير يبثه ما يمليه عليه ضميره ويقص عليه ما حدث وما كان فطمانه الوزير وأسر له انه سيرسل من فوره الي وزير مصر برسالة ليطلق المسكين من سجنه ويفك أسره في الحال فأصر الشيخ ان يحمل

الرسالة بنفسه ليسرع بها وليستسمح الرجل عله يصفح عنه فيرضي الله عنه

وذكر الله الشيخ ابراهيم في سجنه ورتب لنجدته بل ما نساه الله قط .. حقاً ان نسيت الام رضيعها فالله لا ينسانا .. قط لا ينسانا

* * *

تركنا الشيخ سيف الدين في سعادته مع زوجته سلمي التي ارسلها له الله كملك للرحمة لتعيد اليه صغيره وتعيد اليه سعادته وتهبه حياتها فقضي معها علي ظهر السفينة أجمل ايام عمره وجرع من السعادة كؤساً وكؤساً حتى انه ظن انه يحلم وبات يخشي ان ينتهي الحلم وتنفض سعادته وسافر الزوجان وقضيا اياماً في كل ما مرا به من موانئ العالم تركت لهما رصيداً وافراً من الذكريات الجميلة حتى وصلا إلي مصر فقضيا بها شهرين يستمتعان بنيلها واهرامها ويشاهدان اثارها القديمة ومظاهر حضارتها الحالية ومرت الايام وما يلحظان مرورها واخيراً انطلقا عائدين الي منزلهما بالبصرة وما ان وصل سيف الدين الي البصرة حتى انحني يقبل ترابها شوقاً وحنيناً وما ان وصل الي منزله حتى ضرع الي الله يصلي ويشكر له ما وهبه من السعادة واستانف حياته وتجارته واهداه القدر حظاً فاذدهرت تجارته وتضخمت ثروته وعاش في الدنيا ينهل منها كل ما يري به سعادته .. ولكن دوام الحال من المحال وما اعطت الدنيا شيئا إلا واخذت بقدر ما اعطت فإذا به ذات يوم يعود من عمله وتجارته مساءاً فيجد في منزله هرجاً ومرجاً وإذا بالجميع يبحثون عن الصغيرة بثينة فلا يجدونها فظل

يجري كالمجنون في كل مكان .. رباه .. لن احتمل ذلك ثانية أما كفاني غياب الصبي نور الدين لعامين كاملين ؟

يالتعاستي ! لماذا انا بالذات؟ لماذا تضربني الدنيا في ذات الموضع مرتين؟ .. لم أعد احتمل وانهمرت دموعه وهو يبكي وينشج وينادي الصغيرة وينبش عليها كل شبر من المنزل والحديقة فاذا ما وجد ورقة من اوراق الشجر ملقاه في الحديقة رفعها وبحث تحتها .. رباه ماذا افعل ؟

.. إلا بثينة يا إلهي .. إلا بثينة ابنتي حبيبتي .. ايمكن ان احتمل ذاك العذاب ثانية ؟

.. ظل الجميع يبحثون في كل اتجاه عن بثينة وارسل سيف الدين العبيد للبحث في كل المدينة ولم يكتفي بل خرج بنفسه يكرر ما حدث من قبل ويطرق كل باب يقابله والناس في عجب يستنكرون ما حدث له للمرة الثانية ويشفقون علي ذلك الشيخ البائس الذي احتضنته الحياة بنقمتها فما كاد يهنأ بعودة ابن اخيه حتى اختفت ابنته وضرب الجميع كفاً علي كف وما كان يدور في رؤسهم إلا سؤال واحد ايمكن ان تتكرر المعجزة فتعود الصغيرة ؟

من يدري؟ ..

ربما

* * *

ظل الشيخ سيف الدين يخرج صباحاً ولا يعود إلا بعد منتصف الليل وهو يجول في الشوارع ودموعه تغرق وجنتيه وتفيض علي ملابسه ظل ينبش كل شبر في المدينة ويرفع حجارتها ويبحث تحتها حتى اشفق عليه

الجميع وظنوا انه قد ناله ما ناله من الجنون خاصة وانهم كانوا يرونه يهذي حينا ويتحدث الي نفسه حينا ويبكي فيشتد في البكاء حينا ويتخيل الصغيرة امامه احياناً فيبتسم ويضحك ويخيل اليه انه يسمع ضحكاتها فيطبق عليها ليضمها الي صدره ويلعب معها ويداعبها كعادته فاذا بيديه يطبقان علي لا شيء فإذا به يجهش بالبكاء والنحيب بعد الضحك والتبسم والعامة ينظرونه في ذهول ويضربون أكفهم كفا علي كف ويظهر الأسي علي وجوههم و.. ولا حول ولا قوة إلا بالله .. ويمشي الشيخ في الشوارع ذاهلاً لا يدري ولا يأبه بمن حوله يبحث عن الطفلة وهو غرق في شروده حتى انها لو كانت امامه ما رآها قط كانت عيناه مفتوحتين وما يرى ما أمامه كان عقله في مكان آخر مع الصبية يحملها ويلعب معها ويلهو معها وما يسمع غير الضحك والكركرة ومازال العبيد به يحاولون اقناعه بانهم ما تركوا حجراً علي حجر حتى نقضوه وبحثوا عن الصبية تحته فما يقنع بكلامهم وظل علي حاله ثلاثة أيام ما ذاق فيها زاد وما بلغ جوفه قطره ماء حتى نحل جسمه وأقعده المرض ولم تعد قدماه تستطيعان حمله فإذا به ملقي علي سريره يعاني من مرضه ويهذي مع ارتفاع حرارته وما علي لسانه غير بثينة ويصحو مفزوعاً ثم يعود إلي غيبوبته وسلمي إلي جواره وقد امسكت بقطع من القماش تبللها بماء فاتر وتضعها علي جبينه ودموعها تسيل فتغمر وجنتيها وتسقط علي قطع القماش بعد ان بللتها بالماء والصغير نور الدين يقف الي جوارها باكيا صارخا وما يدري لم يبكي .. أهذا هو المنزل الذي كان منذ بضعة أيام لا يسمع به إلا الضحك والكركرة ولا يري به إلا السعادة والهناء؟ فها هي سلمى كانت تلعب مع الاطفال وتلهو معهم تطارد هذا وتجري من هذه وها هو سيف الدين يعود

من اعماله فما يكاد يقف بالباب حتى يركض اليه ثلاثتهم فاتحين اذرعتهم يرتمون في حضنه فما يسعه إلا ان يقبلهم ويضمهم الي صدره وما ان يتركهم حتى يتضاحكون ويركضون هنا وهناك فما يكون منه إلا ان يركض خلفهم فإذا ما أمسك بأحدهم نال منه ضمما وتقبيلا

– دوام الحال من المحال يا شيخنا

– سبحان من له اللدوام يغير ولا يتغير

* * *

استمرت سلمي تصلي وتصلي في حرارة وخشوع وتتطلب من الله ان يشفي زوجها من مرضه وان يعيد اليها الصبية .. ظلت تتطلب الي الله وتزرف دموعها انهاراً وانهاراً حتى اجابها الله بعض دعواتها وابتدأ زوجها يتعافي رويداً رويداً بعد ان قضي شهراً كاملا في حمي جعلته يهذي وينادي بثينة ثم يعود الي غيبوبة غرق فيها حتى اذنيه وزوجته الاصيلة ما زالت بجواره لا تتذوق للنوم طعماً ما عدا غفوة لعينيها بين الحين والآخر وما تلبث ان تغفو حتى تستيقظ مفزوعة تارة علي صوت زوجها يهذي وتارة علي إثر سقطتها من فوق مقعد جلست اليه بجوار زوجها فما فارقها وما فارقته الا لاحضار الماء لتناوله به بعض الدواء وما فارقت المسكينة دموعها لحظة حتى اثناء غفواتها فإذا غفت للحظات تفيق لتجد الدموع وقد اغرقت وجنتيها وكانما اعتادت دموعها ان تعرف طريقها فما تنتظر المسكينة حتى تفيق من غفوتها وما ان افاق زوجها وفتح عينيه حتى ارتمت عليه تلثم وجنتيه وتقبل يديه ولاول مرة تشعر بدموع ذات طعم مختلف دموع يختلط فيها الأسي بالفرحة.

– لقد اتعبتك كثيراً يا حبيبتي

– لا تقل هذا يا سيدي

– فماذا أقول وما رأيت منك إلا أصالة ووفاء ندرا في ذلك الزمان؟

– روحي فداؤك يا سيدي

– والله ان سعادتي بك تنسيني مصائبي

– كريم هو الله لا يتخلي عن عبيده أبداً

– ونعم بالله ..

واغرورقت عيناه بالدموع إذ تذكر مصيبته قبل أن يستأنف حديثه قائلاً:

– ولكن لماذا انا بالذات ؟

– فلتثق بالله يا سيدي

– ونعم بالله

وما فتئت تطمئنه وتهدئ من وروعه وتذكره برحمة الله وارادته التي هي فوق كل ارادة فيطمئن قلبه ولكنه ما يلبث ان يسقط في شروده ويرى الصغيرة تجري نحوه وقد فتحت ذراعيها تجري نحوه بكل قوتها فما ان ينحني لها حتى تطوق عنقه بيديها الصغيرتين فيحملها ويحتضنها في صدره وما يكف عن تقبيل وجنتيها وجبينها والصغيرة تضحك وتكركر وما تلبث ان تنتهي من ضحكاتها حتى تبادره :

– والآن ماذا احضرت لي يا أبي ؟

يتظاهر بالنسيان ويضرب جبينه بإحدي كفيه

– لقد نسيت ان احضر الحلوي لحبيبتي الصغيرة

تخفت ابتسامة الصبية ثم ما تلبث ان تقول:

– ما دمت قد نسيتني فلماذا تأخذ مني كل تلك القبلات ؟

– لأنك حبيبتي

– فلما نسيتني إذن؟

وتقترب بإحدى وجنتيها من فاه بينما تقول مازحة:

– فلترد لي ما أخذت من قبلات إذن

يقبل كلتا وجنتيها قبلات عديدة قبل أن يقول:

– خذيهم إذن

والصغيرة تكركر وتكركر قبل أن تقول:

– أوتظن ان قبلاتي مجاناً؟

يظهر ما في يده من حلوي بينما يقول ضاحكا:

– فإذا كانت مجاناً فلمن احضرت تلك الحلوي؟

تختطف الصبية ما في يد أبيها فينزلها على الأرض فتركض فتغيظ الصبي نور الدين بها ولكنها ما تلبث ان ترتد إليه باكيه

– أبي .. أبي لقد اخذ مني نور الدين كل الحلوي فيهدئ من روعها و ..

– فلتسترد ما سلب منا العدو فإلي القتال يا أميرتي

وما يزالا يلاحقان الصغير وهو يضحك ويكركر حتى يفوزان منه بقطعة صغيرة تأخذها الصبية فتكوكر ويكوكر نور الدين ويكوكر قلب الرجل معهما

* * *

ما ان زال المرض عن سيف الدين ودب النشاط في جسده قليلا حتى قرر الرحيل والبحث عن ابنته فإما ان يعود بها أو أنه لن يعود مطلقاً .. صمم علي الرحيل وما أثناه عن ذلك دموع زوجته وما استطاعت ان تقنعه ان يصطحبها معه فقد خشي عليها وعلي نور الدين من أهوال السفر

فاقنعها ان تظل مع نور الدين في المنزل ومن يدري؟ فقد تعود الصبية يوماً؟ أفلا تجد أحداً بالمنزل؟ وما زال بها حتى اقنعها ووعدها انه لن يغيب كثيراً بإذن الله فسلمت أمرها لله واطاعت زوجها وودعته مسافراً واستحلفته ألا يغيب .. وانطلق سيف الدين صوب بغداد وطرق بابها وراح يسأل في كل مكان ويستفسر من كل انسان عن الصبية وظل علي هذه الحال حتى ما ترك بابا إلا وطرقه .. ظل يخرج من مدينه ليدخل اخري يبحث ويبحث ويبحث فما عثر للصغيرة على أثر وما ان انهي جل مدن العراق بحثا حتى فكر في الرحيل إلا بلاد أخري يبحث فيها عل الله يرشده الي ابنته وما ان انتهت فكرة السفر الي عقله حتى وجد قافله ستعبر إلي بلاد الشام ومنها إلي مصر ففكر في اصطحابها الي الشام وسمح له قائد القافلة ومرت الأيام تجر الايام وسيف الدين لا هم له إلا البحث والبحث وذات يوم وبينما تتهادىالقافلة في طريقها وإذا بعاصفة رملية تكاد تقتلع الرجال والجمال من الارض اقتلاعا وتملأ حلوقهم بغصة من الرمال حتى كاد الجميع ان يختنق واذا بقائد القافلة يأمرهم بالاتجاه الي ما خلف تل قريب للاحتماء من العاصفة ويهرول الجميع كل يسحب احد الجمال المحملة بالبضائع والنفائس الي ما خلف التل وإذ بهم يعثرون علي مدخل لمغارة يحتمون داخلها و...

– حمدا لله يا سيدي ما خرجنا اليوم بسبب العاصفة فأرسل الله لنا الرزق حتى بابنا

– أحيطوا بالجميع إذن ولا يفلت منكم أحداً

* * *

لم تكن تلك المغارة إلا مكمنا لمجموعة من اللصوص وقطاع الطرق الذين يتربصون بالقوافل فينهبونها ويقتلون من اصحابها من يقتلون ويسبون من يسبون ولم يستطيعوا في ذلك اليوم ان يخروجوا من مخابئهم بسبب العاصفة الشديدة وكادت القافلة ان تمر دون ان ينتبه إليها اللصوص وكم من أشياء يراها المرء شراً وإذ بها لم تكن إلا لخيره .. نظر الجميع الي العاصفة وكأنها شر عظيم ولو احتملوا قليلاً لعبروا ووصلوا بقافلتهم الي بر الامان ولكن الانسان دائماً ما يملؤه الضجر والسخط من اتفه الأمور ولا ينظر الا تحت قدميه فلا يعي إذ كان ذاك في خيره أم لا .. وضج الجميع واستاؤا ونظروا نحو السماء يستنكرون منها ما يحدث ويترمرون عليها فإذا بالسماء تتخلي عنهم وتتركهم لمصيرهم ليعلموا كم كانت رحيمة بهم في عواصفها وإذا باللصوص يحيطون بالجميع مشهرين سيوفهم واستسلم البعض لقدرهم ومن لم يستسلم منهم استسلم لليأس والموت بعد معركة قصيرة غير متكافئة وإذا باللصوص قد فازوا بالغلبة فما تركوا ديناراً ولا تركوا انساناً يباع إلا وبيع وإذا بالشيخ سيف الدين يجد نفسه فجأة في سوق الرقيق يباع ويشتري وإذا به يتذوق طعم الذل والعبودية بعد العز والجاه فهانت عليه نفسه واصبح لا يطلب من الله إلا ان يتوفاه فيريحه من عذاب الدنيا وذلها وها هو أحد المشترين يقلبه يميناً ويساراً ويعريه من ملابسه متفحصا جسده وها هو يتفحص أسنانه وكانما يشتري غنما أو بقرا ولماذا العجب؟ ألم يكن هذا ما يفعل وهو يشتري عبيده ما أحس طعم الذل وما شعر بأن للحرية ثمن مثلما شعر في تلك اللحظة وتمني لو فكر فيما مضي وحرر كل عبيد الارض، ولكنه الآن عبد وليتحرر لابد من ثمن ويا له من ثمن! .. شرد ببصره وهاجمته الذكريات وتذكر ما فعل .. الآن

يري ما فعل بوضوح .. يري الجريمة التي ارتكب لعل الله حكم عليه بما حكم نتيجة تلك الفعلة الشنعاء .. ولكنه ما رآها شنعاء إلا الآن .. لكم تذكر ما حدث فما كان منه إلا ان ضحك وقهقهوكثيراً ما تندر بما حدث في مجالسه مع أصدقاءه .. عاد بالزمن إلي الوراء فرأي ذكرياته متمثلة أمامه وكانما يراها أمامه رؤى العين رأى زوجته الاولي سمية وقد ربط الحب بين قلبيهما .. رآها تجري علي الشاطيء في مرح وضحكاتها تتساقط منها هنا وهناك وهو يجري وراءها يريد اللحاق بها فيفوز منها بقبلة يطبعها علي وجنتيها وما ان يلحق بها حتى تتعالي ضحكاتهما ويفوز بغايته وها هما يقتسمان سعادة الدنيا وما يكتفيان من الدنيا إلا بكل مباهجها .. تمر الايام وتمر الشهور وتمر السنين فإذا بالدنيا تخرج لهما لسانها وتعطيهما في الحياة درساً ما ان استوعباه حتى انطفأ بريق عينيهما وخفتت سعادتهما وتلاشت رويداً رويداً كان درس الدنيا لهما انه ما من انسان يفوز في الدنيا بكل شيء وها قد اعطتهما الحب والسعادة فلتحرمهما الابناء كانت اعظم مشكلة تؤرقهما وما كانا يهنآن بفرحة إلا وتذكرا مصيبتهما فاذا بالفرحة تتلاشي من العيون .. كانت عيونهما ما ان تقع علي طفل صغير يصطحب ابواه حتى يحملقا بالصغير ويأكلاه بعيونهما وتمنيا ان يكون ابنهما أو يمن الله عليهما بمثله واخذا يصليان الي الله ويتضرعان ويتطلبان فما سمعت صلواتهما وما اجيبت تطلباتهما وعاشا سنوات بقلوب كسيرة محطمة يتمنيان من الله ابنا أو بنتا ولو اخذ منهما كل ما يملكان وكان سيف الدين يحب سمية أيما حب فكان يكتم ما في نفسه من لهفة ولوعة ويحاول ان يرفه عنها ويخفف عنها ما بها من ألم فكان يصطحبها إلي الحدائق والمتنزهات يلهوان معا كالاطفال

فيسابقها حينا وتسابقه أحيانا ويطاردها حينا وتطارده أحيانا وما ان يصلا الي قمة سعادتهما في لهوهما فاذا بذكري حرمان الولد تهاجم رأسيهما فتهبط فجأة بسعادتهما من اوجها الي الصفر وذات يوم وبينما يركض خلفها وما ان لحق بها وإذ به يفوز بقبلاته فيتضاحكان ..

– ها قد لحقت بك أخيراً يا حبيبتي وقد قطفت من وجنتيك قبلاتي

– اتحبني يا سيف الدين ؟

– أو تسأليننى؟ .. أما قرأت ما في عيني ؟

– انني لا أجيد قراءة العيون .. قد أعرف من كفك وأمسكت بيمناه تقبلها ثم فتحت كفه ونظرت الي خطوطها وضحكت بجذل قائلة :

– ياللهول! .. أين ذهب خط الحب؟

وما ينتهيان من لهوهما إلا ويسمعان صوت عرافة تنادي علي بضاعتها وتعلن انها تضرب الودع فهتفت سمية في جذل :

– يالله! .. ها هي العرافة لنري ان كنت تحبني أم لا؟

لم يكن سيف الدين من ذاك النوع من الرجال الذي يؤمن بالخرافات والعرافات والمنجمين وحاول أثناء زوجته عن عزمها ..

– كذب المنجمون ولو صدقوا يا حبيبتي

– بل تخشى من اكتشاف حقيقتك وعدم حبك لي

– ماذا تقولين ياحبيبتي؟

– لنفعل ذلك علي سبيل اللهو ..

أرجوك

* * *

انزلت العرافة ما تحمل عن رأسها وامسكت بالودع فسلمته الي الزوجان ليهمهما له بما يتمنيان وأخذته منهما بعد لحظات والقت به فوق قفه مليئة بالرمل ثم ثبتت ناظريها على سيف الدين وقد علت وجهها دهشة شديدة ثم ما لبثت أن تمالكت نفسها وقالت فيما يشبه الذهول : " ما ان تنذر نذرك من دون وعيك حتى تهل قدم الخير وتعود من سفرك فتجدها بخير ويتم سعدك بعد ثلاثة أيام"

– انا لا أفهم شيئاً .. أيتها الشيخة فسري كلامك

– ما عندي تفسير لقد أخبرتك ما عندي وما رأيت

وحملت العرافة قفتها وانطلقت مبتعدة وكأنها تهرب من شبح يطاردها

– انتظري يا شيختنا

– وقتك انتهى يا شيخنا وما عندي لك مزيد من كلام

– انتظري فما قرأتي كف زوجتي

لم تعره العرافة التفاتا فأمسك بيد زوجته في يمناه ومضى يقول متعجبا:

– هل فهمت منها شيئاً؟

– ربما تقصد ان الله سيهبنا بنتا فالبنت قدم الخير

– ولكنني لا أصدق كلام المنجمين ولا أؤمن به فهي تتكلم كلاماً عاماً ينطبق علي كل الناس وكل يفسره حسب رغبته

– ولكن كيف أدركت اننا نفكر في الانجاب؟

– هذا بسيط فهي ترانا نلهو .. وليس معنا من اطفال فلعبت باحلامنا ثم أنها لم تقل ذلك صراحة .. ولكن ما معني باقي حديثها .. «تعود من سفرك تجدها بخير» أي سفر هذا؟ .. أولو انجبنا بنتا اتراني من الممكن ان اسافر واتركها؟ انني لن افارقها ما حييت

– دعك منها ولنعد الي لهونا

– وكيف نلهو وقد شغلت ذهني بكلامها ؟

– ألا يمكن ان تكون صادقة وان الله سيهبه بنتا يكون في قدمها الخير ..

شرد في أفكاره بعيدا بينما يتمتم:

– تلك هي امنيتي .. فإذا ما وهبتني طفلة يا إلهي لأعتقن رقاب خمسة من العبيد

– حبيبي ها هو كلامها يتحقق وانت تنذر نذراً بينما انت من دون وعيك

ابتسم قائلا:

– وأين البنت إذن ؟

– حبيبي اتهذي؟

– لماذا؟

– ألا تنتظر تسعة أشهر ؟

ومرت أيام وأيام ونسي الزوجان حديث العرافة بل نسيا العرافة نفسها وانغمثا في حياتهما يلهوان تارة ويغتمان تارة وفجأة بدت اعراض الحمل علي سلمي واضحة فكانت تقيء ما تأكل ولا تطيق رائحة نفاذة وكثير من الاعراض التي النساء بها خبيرة أعلم .. إلا انها لم تصدق نفسها وظنت انه الوهم يداعبها فما ارادت ان تخبر زوجها فيفرح وإذ به بعد ايام يصدم فكتمت سرها وانتظرت حتى تتيقن من خبرها كانت لا تصدق نفسها ايمكن ان تحل مشكلتها بمثل تلك البساطة ان زوجها لم يترك طبيباً إلا واصطحبها اليه ولم يترك وليا من اولياء الله الصالحين إلا واخذها اليه وما ترك الزوجان فرصة إلا وتطلبا من الله ان يحل مشكلتهما فما حلت وها اليأس قد تسرب اليهما حتى نما وترعرع وملأ نفسيهما وافاض حتى لم

يعد لهما اي أمل وانقطعا عن تطلباتهما وفقدا الأمل تماماً أيمكن بعد كل هذا اليأس ان يأتي الفرج علي يد عرافة؟ من يدري؟ ألا يحتمل أن يكون حملا كاذباً؟ .. وقد يكون الوهم لعب بخيالها فخيل إليها مرض معدتها وتعب جسدها اعراضاً للحمل ولكن ماذا عن ..ونعم هناك من الأعراض التي تعلمها النساء لا تكذب ولا تخيب ولكن لتنتظر حتى تتأكد .. مرت الايام تجر الايام ومر شهر وشهر وشهر فإذا ببطنها تنمو وتشعر بالجنين في بطنها يتحرك وها هو يرفسها بقدميه انها تشعر به وكانه بين ايديها تكاد تقسم بانها تشعر بنبضات قلبه وكل خلجة من خلجاته وتشعر بكل حركة يقوم بها في احشائها بل انها تكاد تقسم انها تسمع صوته من شدة فرحتها .. وما ان اقبل زوجها حتى ركضت اليه تبشره بالخبر السعيد وبقرب قدوم ولي العهد فطار عقله من الفرحة .. كانت تنظر الي وجهه فلا تدري أكان يضحك أم يبكي ؟ وان كان هذا هو الضحك والبشر والسعادة فما تلك الدموع التي تغرف وجهه؟ ألعلها دموع الفرح؟ .. لابد وأنها دموع الفرح .. لم يكن يصدق أذنيه .. كان يظن انه نائم يحلم راح يتحسس جسده ليتأكد من انه يقظ لكم كانت سعادته حينذاك حتى انه كان يود ان يحتضن الدنيا باسرها وامسك يكتفي زوجته يسندها علي ذراعيه ويطلب منها ان تستريح ولا تتحرك وان تطلب منه ما تشاء ولو نور عينيه.

لم يكن يدري كيف يشكرها علي ذاك الخبر السعيد كان يود لو يستطيع ان يضعها في عينيه بين جفونه خوفاً عليها .. ولكن ها قد حقق الله امنيته ولم يكسر بخاطره فهو يستحق الشكر كل الشكر.. ولا مجال لتأخير شكره فقام يصلي الي الله ويشكره في صلاته والدموع تغرق وجنتيه لا

يدري كيف يشكره واخذ يسجد لله فيطيل السجود حتى داهمه النوم فنام علي الارض ورأي فيما يري النائم وإذا بأباه الذي توفي منذ خمس سنوات جاءه مرتديا ملابس بيضاء لامعة وكأنها تشع نوراً واقترب منه يناوله طفلة رضيعة رائعة الجمال فاتنة بينما يقول:

– مبارك لك فيها ياولدي .. هاك بثينة وسأذهب لآتيك بنورالدين

التقط الطفلة بين زراعيه وضمها إلى صدره بينما يقول:

– ومن نور الدين يا أبي؟

– الأمانة يا ولدي .. فحافظ عليها

– ومتى خنت الأمانة يا أبي؟

– ليتك لا تفعل يا ولدي

وإذا بالاب يوليه ظهره فجأة تاركا الطفلة بين يديه ويمضي فيناديه سيف الدين :

– انتظر يا أبي

ينظر اليه وهو يقول :

– لابد وأن أذهب

– إلى أين يا أبي؟

– سأحضر الأمانة .. ساحضر الامانة يا ولدي

* * *

"هل نمت علي الارضيا سيدي؟"

شعر سيف الدين بزوجته تهزه برقة بينما تنطق بتلك العبارة ثم رجته ان ينتقل إلى فراشه فنهض عن الأرض واستلقي علي سريره ونام كما لم ينم

من قبل وراودته احلاما سعيدة فما ان استيقظ صباحاً حتى وجد زوجته نائمة مستلقية إلي جواره فاخذ يهزها برفق ويوقظها ..

– حبيبتي .. استيقظي

– لاتركني أنام أرجوك

– استيقظي ارجوك يا حبيبتي

فتحت عيناها بصعوبة بينما تغمغم في كسل قائلة:

– ماذا حدث يا حبيبي؟

– أما وقد حلمت حلما!

أفاقت وبدا عليها الإهتمام بينما تقول:

– ماذا حلمت بالضبط يا زوجي العزيز؟

– لقد حلمت واذ بي عائد من عملي فأجدك وقد تهلل وجهك وملأت الفرحة عيناك وسعادة الدنيا تبدو عليك وإذ بك تبشرينني بأنك .. أنك .. اكملت في جذل :

– حامل .. أليس كذلك ؟

– هل رأيت نفس الحلم ؟

أخذت تقبل وجنتيه في جذل بينما تقول ضاحكة:

– لم يكن حلما يا حبيبي

– ماذا تقولين ؟

– لم يكن حلما يا حبيبي .. بل هو الواقع

– هل تعنين...؟

– نعم ياحبيبي .. انني حامل .. حامل بالفعل

* * *

مرت الايام بطيئة متثاقلة في انتظار المولود فما كان الزوجان يطيقان صبراً وكانا احيانا يتذكران العرافة فيتعجبان ويتسائلان ها هي قد صدقت في جزء من كلامها فها هو ينذر نذراً وهو في غير وعيه فما يكاد واذا بزوجته حامل وتردد كلامها في ذهنه: ما ان تنذر نذرك من دون وعيك حتى تهل قدم الخير، انا أذكر كلامها بدقة قالت تهل ولم تقل يهل إذن فهي بنت وها هو ابي يأتيني في المنام فاذا به يسميها بثينة لكم يحب هذا الاسم انه يذكره بحبه الاول يذكره باول فتاة دق لها قلبه وشرد بخياله وتذكر حين كان صغيراً في الخامسة عشرة من عمره وكيف رأي بثينه وقد نضجت فجأة بعد ان كانت مجرد طفلة كم لعبا معا وكم مرحا معا وها هي تتحول إلى ثمرة تفاح ناضجة خلبت لبه بجمالها وكانت بنت جار لهم تذكر كيف كان يقضي الساعات امام منزلها حتى اذا ما خرجت فاز منها بنظرة او ابتسامة وينمو حبها في قلبه حتى لا يخال حياته من دونها وتذكر كيف وقف امام والده يسمع اللوم والتوبيخ والاستنكار والوعيد فكيف لطفل مثله –كما كان ابوه يعتقد – ان يفكر في الزواج ثم ألا يجدر به ان يفكر بالعمل أولا حتى يستطيع الانفاق علي الاسرة التي يبغي ان يكونها ويتهمه أباه بالحمق والاندفاع وما يفيق من غفوته إلا علي صوت الزغاريد تملأ الارض والسماء تعلن زواج فتاته حبه الاول لأحد اثرياء البصرة تذكر يومها كيف ضاقت به الدنيا وكيف دب اليأس والأسي والالم في قلبه .. احس قلبه يتحطم وجرحه يدمي .. لم يصدق أذنيه .. كان ينتظر وبداخله أمل دفين ان تتدخل السماء فيحدث ما يوقف الزواج ويعيد اليه حبه كان يظن انها ملكه قد اشتراها بحبه فكيف ينتزعها منه احدهم؟ وكيف لا تتدخل عدالة السماء وتهدم حفل الزواج على رؤسهم من اجله؟

.. انتظر يرقب ويراقب ولكن للاسف ما حدث شيئ يعكر صفو الزواج وجاء المأذون وكتب الكتاب .. خيل اليه ان الرجل يكتب صفحة من صفحات عذابه وما ان انتهي حتى تعالت الزعاريد تصل إلى أذنيه فتضيف كل منها طعنة جديدة الي قلبه المطعون الدامي وتخيل ان حياته قد انتهت وان عذابه قد بدأ وعاش فترة من الزمن لا يدري اذا كان حيا ام ميتا يحيا بلا قلب بلا روح ومرت عليه ايام ما كان يطيق النظر في وجه أبيه – وهو سبب تعاسته – ولكن الأيام تطيب الجراح وتشفي الآلام وتنسي الفواجع العظام فما زالت به حتى أنسته كل شيء وعوضته بحبه الحقيقي سميه وها هي ستهبه حباً آخر .. بثينة ابنته .. فأين انت يا صغيرتي ؟ .. متي تمحين الأسي عن وجه ابيك؟ .. متي يا حبيبتي؟ ..
متى؟

* * *

"مبارك يا أخي .. فليتربى في عزك"
نطق سيف الدين بهذه العبارة وهو يشد على يد أخيه ويهنئه بمولوده الأول ثم احتضنه بشدة بينما تفيض الفرحة من عينيه
– يبدو ان الله سيتم سعادتنا معا يا أخي فها زوجتك علي وشك الولادة ايضا
– بقي شهور ثلاث يا أخي .. ولكن بم ستسمي الصغير؟
– نور الدين
– نور الدين ؟ لماذا هذا الاسم بالذات ؟

– لا أدري يا أخي ولكن هاتفاً بداخلي يدعوني ان أسميه نور الدين ثم انني سألت والدته أي اسم تختار لابنها فإذا بها تقول أيضاً نور الدين

– أرجوك يا أخي فلتتخذ اسما آخرا

– لماذا ؟ انه اسم جميل .. ألا يعجبك الاسم؟

تلعثم بينما يقول:

– يعجبني ولكن ..

– الخيرة فيما اختاره الله يا أخي

ربت سيف الدين علي كتف اخيه ولكن اعتلت وجهه كآبة غريبة وشرد في افكاره .. اذن فحلمه ليس بصادق وأباه الذي جاءه بالحلم ووعده بأنه سيحضر له نور الدين امانة بعد بثينةمجرد أضغاث أحلام .. كان قلبه يحلم بالولد وان كان يشكر الله ويقبل كفه معدولا مقلوباً إذ اعطاه بنتا ولكنه كان يمني نفسه ان تصدق احلامه فينجب بثينة ويتبعها بنور الدين أكان أباه يقصد اخيه في حلمه حين قال انه سيأتيه بالامانة؟ ولكن لماذا جائني انا ولم يذهب الي اخي مباشرة ؟ أيعقل ان يكون الحلم صادقا فينجب ابنا ويسميه نور الدين ايضا؟ .. ولكن كيف يكون ابنه نور الدين وابن أخيه نور الدين أيضا ؟ .. ولكن ما العجب في ذلك؟ فلتكن ارادة الله! .. ولكن العرافة .. انها لم تذكر شيئاً عن الولد .. ماذا بك يا سيف الدين؟ اتراك جننت؟ اتراك وقد ذهب عقلك تصدق العرافات واضغاث الاحلام؟ لعلك قد جننت فعلاً .. ان ما حدث لا يعدو مجرد صدفة، ولكن كيف وقد تحقق نصف ما قالت العرافة؟ .. ثم ما معني بقية حديثها "وترجع من سفرك فتجدها بخير " انني لا انوي السفر مطلقا ولن أترك البصرة ولست مغرما بالسفر قط .. علها تقصد ان الله سيحفظها لي

؟ .. ربما .. لماذا اشغل بالي بمثل تلك الخزعبلات؟ .. فلندع الأيام لتجيب على تساؤلاتي

– استأذنك في الإنصراف يا أخي .. بارك لك الله في نور الدين

– تفضل يا أخي .. ستلد زوجتك قريباً فيتم سعدك إن شاء الله

مضى سيف الدين مبتعداومضى في ذات الوقت إلى شروده ثانية ..

"يتم سعدك" .. لماذا استخدم أخي نفس العبارة .. لقد ذكرني بما قالت العرافة "وبعد ثلاثة أيام يتم سعدك" فماذا كانتتقصد؟ وها قد مر ست شهور لا ثلاثة أيام فماذا كانت تقصد بهذا الهراء؟ والله لن اشغلن بالي بهذا الهراء ثانية وارتسمت علي وجهه ابتسامة وانطلق في طريقه يقصد منزله حيث حياته وحيث حبيبته سمية وأمل حياته في أحشائها ..

بثينة

* * *

انحني سيف الدين امام زوجته يلصق اذنيه علي بطنها ويتسمع حركات الطفلة ونبض قلبها ويتحدث إليها وسعادة الدنيا في عينيه:

– حبيبتي بثينة

وخالها تجيبه :

– نعم يا أبي

فاستانف حديثه:

– الا تتعجلين في المجئ واسعاد قلب ابيك؟

مرت سمية بإحدى راحتيهاعلى شعره في حنان بالغ بينما تقول:

– أوأيقنت انها بنت؟

أمسك بيدي زوجته يقبلهما بينما يقول:

– قلبي يحدثني بأن أبي والعرافة سيصدقان وتكون بثينة

– قلبي يحدثني بذلك أيضا

– فلتكن ارادة الله يا عزيزتي

وفجأة صرخت سمية صرخة قوية فامسك سيف الدين بها بينما يقول في فزع:

– ماذا بك يا حبيبتي ؟

– يبدو انها آلام الولادة

– فهل استدعي القابلة إذن؟

– لتسرع فلست اتحمل الألم

أسرع يعدو يميناً ويساراً ويستدعي الخدم والعبيد والجواري ويتعثر في ارتباكه هنا وهناك وأمر باحضار القابلة فوافته في الحال فأدخلها الحجرة إلى زوجته فورا وما أن سمع صرخات زوجته واذ بكل صرخة تعتصر قلبه حتى أخذ يروح ويغدو امام باب الحجرة في قلق شديد وفجأة ..

– واء.. واء

يا الله هذا اجمل ما سمع طوال حياته .. لم يطق الانتظار وهم باقتحام الحجرة فإذا بأخيه الذي اتي لتوه لمؤآزرته يمسك بكتفه بينما يقول:

– إهدأ يا اخي .. بارك الله لك فيه إن شاء الله

– اشكرك يا أخي .. ما اطيق صبرا علي رؤية المولود

اندفعت القابلة خارجة تزغرد وتزغرد بينما تقول:

– البشارة يا سيدي!

– هل الأم بخير؟

– الأم والطفلة بخير ياسيدي

أخرج كل ما معه من نقود واعطاه للقابلة بينما كان قلبه يزغرد فرحاً واقتحم الحجرة وإذ بقلبه يكاد يقفز من فرحته وإذا بالأم وهي في قمة سعادتها وكانها لم تكن تتألم منذ قليل تحضتن الصغيرة في حب وتلقمها صدرها مد يده يلتقط الصغيرة وقد لفت بالاغطية ونظر في وجهها لا يصدق ما يري من جمالها فغمغم قائلاً:

– ها قد ورثت عنك جمالك ورقتك يا حبيبتي

– بارك الله لك فيها ياحبيبي

امسك بإحدى يديها بين راحتيه بينما يقول في حنان بالغ:

– حمدالله علي سلامتك يا حبيبتي

– اسعيد يا زوجي العزيز؟

– ليس بقدر سعادتي بك يا حبيبتي .. يكفيني انها قطعة منك

– ألست متكدراً لانها بنت لا ولد

– البنات كالزهور في المنزل .. انني متأكد ان الله سيهبنا الولد واذا لم يهبنا فكفانا تلك الجوهرة

وضم الصغيرة إلي صدره وما زال بها يقبلها حينا ويحتضنها حينا وقلبه يرقص طرباً علي صوت بكائها وكانه يتسمع الي لحن من ألحان الجنة و ..

– اهكذا تستقبلين ابيك حبيبك بالبكاء يا صغيرتي؟

– واء .. واء

وانطلق يقبل وجنتيها وجبينها ..

يقبل وجنتيها وجبينها ..

فلا يشبع

* * *

– كيف حال الصغيرة الآن ؟

– حرارتها مرتفعة للغاية ولا أدري ماذا أفعل لها

– انني قلق عليها للغاية فمنذ اسبوع ولم تتحسن حالها

– لا أدري ماذا حل بها

– لقد احضرت لها كل أطباء المدينة ولا فائدة وتساقط الدمع من عينيه وهو يلتقط الصغيرة فيحتضنها بينما ينظر نحو السماء يدعو الله ان يحفظها له وألا يحرمه من نعمة من بها عليه لقد اصبحت كل حياته .. فلتأخذ حياتي يا رباه ولتحفظ الصغيرة .. إن روحي فداء لها .. وها هي أمها وقد انفطر قلبها عليها من البكاء و ..

– هذا خطر عليها .. كيف سترضعينها وانت بهذه الحال؟

– إنها ترفض الرضاعة تماماً .. لقد حاولت معها كثيراً

– سأذهب لاحضار الطبيب

– وكأن الأطباء يقيمون معنا فما أن يذهب احدهم حتى تذهب لإحضار آخر

انفجرت دموعه بينما يقول في أسى :

– فماذا افعل وانا اري حياتي تضيع وتتسرب من بين أناملي؟

– صدقت فما معني الحياة بعدها؟

ونظرت الي السماء وكانها تعتب عليها .. أتريد ان تسترد وديعتها؟ اندمت علي هبتها؟

يـا الهـي .. لا تـتركني .. اشـف صـغيرتي فـاكون خادمتـك المطيعـة طـوال عمري .. لا ترد قلب أمة مسكينة ولا ترد طلب أم ملتاعة علي وحيـدتها يا رب اظهر قوتك في ضعفي

ويجئ الطبيب وينصرف وهو يمصمص شفتاه وينظر الي الأب في أسي :

– لا أري سبباً لمرض الصغيرة

– فماذا بها إذن ايها الطبيب ؟

– لا أدري ما أقول ولكن ارادة الله أقوي من كل شيء

– ارجوك افعل شيئاً ايها الطبيب .. افعل أي شيء واطلب ما شئت ولو كل ما أملك

– لقد اعطيتها الدواء يا ولدي ولكن الشفاء بيد الله لا بيدي

صافح الطبيب بينما يملأ الحزن عينيه ..

– اشكرك أيها الطبيب

وانصرف الطبيب وما ان خرج من الباب حتى ذهب سيف الدين ليصلي ويتطلـب الـي الله علـة يشـفق علـي قلبـه الملتـاع واطـال فـي صـلاته ودعـائه واطال في سجوده وأحس باطمئنان غريب في قلبه ثم نهض واستلقى على فراشـه وغلبـه النـوم فنـام واذا بـأبيه فـي ذات الثيـاب البيضـاء اللامعـة الـتي تكاد تشع نورا يقترب منه ويقول :

– اطمئن يا بني

– وكيف اطمئن وابنتي علي شفا الموت

– اطمئن فابنتك ستحيا وتعيش وستفرح بزواجها يوما

تهلل وجهه وظهرت الابتسامة على وجهه بينما يقول:

– وأين امانتك التي وعدتني يا أبي

–لا تتعجل الأمور يا ابني فلكل شيء اوان

وصمت برهة ثم استطرد في حزن :

– أين نذرك الذي نذرت يا ولدي؟

– أي نذر يا أبي؟

– أوف بنذرك يا ولدي فما به ابنتك من كرب فبسببك يا ولدي فخير لك الا تنذر من ان تنذر ولا تفي

– قل لي اي نذر يا أبي؟

– واختفي الاب فجأة ومد سيف الدين يده فما يمسك إلا الهواء بيده فصرخ وهو يبكي وينشج:

– فأي نذر يا أبي؟

واستيقظ سيف الدين علي اثر هزات خفيفة من زوجته وهي ترجوه ان ينهض فقد سمعته يهذي في نومه ولاحظت الدمع في عينيه

– لا تبكي يا حبيبي فدمع الرجال غال

– ان ما حدث مع ابنتي يجعل دمعي أرخص من التراب فوالله لو ان الدمع يشفيها ما توقفت عن البكاء لحظة .. ولكن أما زالت الحمي تعصف بالصغيرة ؟

– لم ترايلها لحظة واحدة وما فارقتها صرختها

– واصغيرتي

وتذكر حلمه وتذكر نذره فأبشر وجهه بابتسامة مفاجئة

– ماذا حدث يا عزيزي

– أظن انني عرفت العلاج ..

علاج الصغيرة

* * *

وقف خمسة من من العبيد صفا واحدا جنبا الي جنب امام سيف الدين الذي جلس الي منضدة وأمامه خمس صكوك وخمس اكياس مليئة بالمال .. نهض عن مقعده وتقدم نحوهم وهم ثابتون منتبهون لا يتحركون وتوقف امامهم مباشرة و ..

– انكم طبعاً لا تدرون لماذا استدعيتكم انتم بالذات .. لقد جمعتكم لانني حين اردت من الله ان يهبني طفلاً نذرت نذراً ان اعتق خمسة من العبيد و ..

بدت الفرحة على وجوههم وتمتم كل منهم:

– شكرا لك يا سيدي

– لقد اخترتكم انتم بالذات عمرو وخالد وهلال وزياد وفارس لأنني اري انكم تستحقون الحرية فقد خدمتموني بإخلاص وكنتم لي كأولادي ولا يغرنكم ان تنالوا الحرية مجاناً فللحرية ثمن .. وثمن باهظ .. ثمن أكبر من ان تخالوه

قال عمرو في سعادة :

– ومن يعرف ثمن الحرية ويقدرها يا سيدي مثل من حرم منها؟

– إذن فلتحافظوا علي حريتكم واعلموا ان حريتكم ليست مطلقة فهي تنتهي حيث تبدأ حرية الآخرين واعلموا انني قد احببتكم وعاملتكم ليس كعبيد عندي وانما كأبنائي

وانحدرت دمعة علي جبينه بينما يقول:

– ويعلم الله كم يعز علي فراقكم وكأنني أجتث جزءاً من جسدي وادعوه للانطلاق بعيداً عني

وابتدأ يحتضنهم ويقبلهم ودموعه تسيل فتختلط بدموعهم ثم هدأ قليلاً وجفف دموعه واستانف حديثه قائلاً :

– ولكني اعلم ان مصلحتكم في نيل حريتكم وإن كان يعز علي فراقكم وقد وهبت كل منكم مائة دينار ليبدأ حياته ويعيش حراً بشرف وسلم كل منهم الصك وكيس من النقود فتطايرت الفرحة من عيونهم وان كان يشوبها بعض الاسي والتأثر من ألم الفراق

– والآن لا ارجو منكم يا أولادي إلا ان تدعوا الله معي ليمن علي اختكم بثينة بالشفاء

وبدأ يودعهم واحداً تلو الآخر وكل منهم يعاهده علي الولاء له ويبلغونه انهم يشعرون انه فعلاً ابيهم وان ابنته اختهم ويوما ما قد يستطيعون رد جميله ولكنه أفهمهم أنه لا ينتظر منهم ثمنا أو رداً للجميل وان الله قد دفع عنهم الثمن فكانت اختهم بثينة هي ثمن حريتهم وانطلق الجميع تغمرهم فرحة تمتزج بألم الفراق

– وهل شفيت الفتاة يا شيخنا ؟

– أولا تراها تلعب وتلهو مع نور الدين امامك يا شيخنا؟ .. استأذنك للحظات

– تفضل يا شيخنا

أسرع سيف الدين نحو الطفلين بينما كانا يلهوان في الحديقة وراح يداعبهما ويقبلهما فيرقص قلبه على نغمات ضحكاتها

* * *

ما ان اوفي سيف الدين بنذره حتى تعافت الصغيرة وتركتها الحمي وعادت اليها ضحكاتها وعادت البهجة ترفرف علي المنزل الكئيب ثانية وحملها سيف الدين بين ذراعيه يكاد يرقص بها من السعادة وقد عاد اليها تورد وجهها وابتسامتها الساحرة التي تزيد من جمالها فاخذ يهدهدها ويداعبها والصغيرة تضحك بصوت عال فتعلي من قدر سعادة ابيها

– اخيراً يا صغيرتي

– بب .. بب .. بب

– اخيراً عافاك الله ورد الينا ارواحنا وقلوبنا

– بب .. بب .. بب

– حبيبتي.. ردي علي ابيك

– ها .. ها .. بب

ويقبلها ويحضنتها

– كفي يا سيف الدين ستعتصر الصغيرة

– ان سعادتي اليوم لا توازيها سعادة

– ادام الله سعادتك يا حبيبي

التقط احدي يدي سمية وضمها في يده بينما مايزال يحمل الصغيرة بالاخري وهو يقول :

– تعبت كثيراً يا حبيبتي فلتستريحي قليلاً

– ما ان رأيت ابتسامة بثينة وابتسامتك حتى زال كل ما بي من تعب

وما امهلته الدينا حتى ينهل منها سعادة علي سعادته فما ان شفيت الصغيرة حتى سقطت الام في المرض بسبب ما عانته مع صغيرتها فلم تذق طعم النوم لايام ونسيت نفسها فلم تذق الذاد لايام وما كادت

الصغيرة تتماثل للشفاء حتى لم يعد جسدها يحتمل فسقطت في المرض وظن سيف الدين ان مرضها بسبب التعب وسيزول بعد يوم أو اثنين ولكن القدر كان له رأيا آخر فطال مرضها وها هي المصائب لا تأتي فرادي فها هي زوجة أخيه قد توفيت وما لبث اخاه ايضاً أن لحق بها بعد ان اوصاه بنور الدين اذن فها حلمه يتحقق ويأتيه نور الدين أمانة من اخيه لطالما حار في تفسير حلمه واذا بالايام تفسره وتلقي له بالحل .. ياللمصائب المتوالية لقد جعلت تلك المصائب منه انسانا حزينا يائساً لقد اصبح جسده هو الحزن نفسه يمشي علي الأرض أما كفاني يا إلهي مرض ابنتي فما كادت ان تشفي حتى مرضت زوجتي وما أكاد أفيق من هذا وذاك واذا بزوجة اخي يتوفاها الله ويلحق اخي بها بعد ايام هذا كثيرا يا إلهي فمن يستطيع التحمل سأجن يا إلهي انجدني يا إلهي .. انجدني أرجوك .. رأسي تكاد أن تنفجر .. ولكن وجود الصغير نور الدين سيخفف من الآمه .. نعم فليحضره ويربيه في بيته فليحضره من عند خالته .. فما دام ابن اخي حي فاخي حي لم يمت .. هو حي في ابنه .. وذهب من فوره ليحضر الصغير وأخذ يداعبه في الطريق والصغير يضحك ويكركر فيخفف الأسي عنه .. كاد يرقص من الفرح فهذا ابنه لا ابن اخيه سيربيه علي الفضيلة والأخلاق وسيتخذ منه ابنا و ..

وما كاد يصل بالصبي إلي باب منزله حتى سمع العويل والنحيب والصراخ فأخذ يجري حاملاً الصغير علي ذراعيه و ظل يجري ويجري حتى يكاد يسمع دقات قلبه من شده الركض فإذ به يجد العبيد والجواري يصرخون ويولولون ينعون له وفاة السيدة سمية وترك الولد أرضا وركض الي داخل

الحجرة والدموع تملأ عينيه وتفيض ويقبل علي زوجته المتوفاه يقبل كلتا وجنتيها ويغرقها بدموعه ..

– لماذا تركتني يا حبيبتي؟ أهانت عليك سعادتنا؟ .. لمن تركتني؟ ولماذا لم تأخذيني معك؟ .. لمن تركتي ابنتنا بثينة؟ .. من سيربيها سواك؟

ويهزها بكل قوته ..

– أرجوك! أرجوك! أجيبيني! .. لا تتركيني! .. ها ابنتك قد شفيت .. أرجوك! .. أرجوك! .. قومي يا حبيبتي! .. قولي لي انك لن تتركيني وحدي في هذه الدنيا! .. وما قيمة الدنيا كلها بدونك وانت كل سعادتي؟

ويمسك يداها ويقبلهما

– ويلي! .. ويلي بدونك!

ويبدأ في التشيج والبكاء بصوت عال ويضرب صدره حينا ويهذي حينا ويضرب وجهه بكفيه حينا ويتمالك نفسه ويقف علي قدميه ويخرج من الحجرة وإذا به يجد الطفل وقد جلس علي الارض يبكي فإذ به ينظر إليه شذراً ويطيش صوابه ويصرخ قائلاً :

– هذا الطفل النحس هو من قتل زوجتي ويتم ابنتي

لقد حذره الكثيرين بان هذا الطفل شؤم علي كل منزل دخله فما صدقهم والآن يثبت القدر أنهم كانوا علي صواب .. ألم تأخذه خالته أياما قليلة بعد موت أبيه فإذ بها تفقد زوجها؟ وها هو يدخل به إلي بيته فيفقد زوجته وإذ به يصرخ بالخدم:

– ابعدوا هذا الطفل المشؤم عني .. لا أريد ان آراه أمامي ثاني

وأسرع الخدم والعبيد يحملون الطفل وينظرون إليه في شفقه فيتبسم لهم الصغير فيلاعبونه ويداعبونه ويلهون معه ومرت أيام وأيام ولم يطق سيف

الدين ان يراه فما وقعت عليه عيناه صدفة حتى هاج وماج وألهب ظهور العبيد بسوطه وتغيرت احوال الرجل فاصبح السوط بديلاً عن اللسان فما كان يعجبه العجب العجاب وكان يتحين الفرص ليذيق عبيده عذاباً .. عذابا على عذابهم

* * *

وذات يوم وبينما سيف الدين علي طبعه السيىء وتغير أخلاقه ومبادئه وما مضي علي وفاة زوجته إلا شهراً أو يزيد حتى جاءه أحد العبيد يقول :

– السيد فارس يريد لقاؤك يا سيدي

– انا لا أعرف السيد فارس هذا

– انه أحد عبيدك الخمسة الذين حررتهم يا سيدي

– ألانني حررته ظن ان الرؤوس قد تساوت ؟

– بما أبلغه يا سيدي

– قل له انني لست موجوداً .. انتظر .. انتظر لنري ماذا يريد هذا الغبي ؟

وذهب إليه في الردهة

مد فارس يداه يبغي احتضان سيده، ولكنه قابله ببرود وأبعده عنه

– أوجز فليس لدي وقت .. ماذا تريد؟

ارتبك فارس وتلعثم ولم يكن المسكين يدري ما الذي حدث لسيده وما الذي غير حاله من النقيض إلي النقيض

– لقد اطمعني كرمكم يا سيدي وقد دعوتني ابنك فجئت أطلب منك طلباً وأخشي ان تردني خائباً

– ماذا تريد؟

– أريد حبيبه يا سيدي .. جاريتك حبيبة .. انت تعلم مدي تعلقنا بعضنا ببعض وحبنا الطاهر وقد وعدتني ذات مرة ان تزوجني إياها و ...

ثار سيف الدين وهاج وماج وصرخ قائلاً :

– أجننت يا هذا ألأنني منحتك حريتك مجانا تظن ان الحرية بلا ثمن ؟

قال في ارتباك :

– ومن قال انها بلا ثمن يا سيدي ؟ .. سأشتريها منك بمالي

– أو ظننت انك ملكت بعض المال فيمكنك ان تشتري ما تريد ؟

– ولكن يا سيدي ..

– ولكن ماذا ؟ من قال انني أريد ان أبيعها ؟ .. إنني اتعجب كيف واتتك الجرأة ان تطلب هذا الطلب مني ؟

– انا لم أقصد يا سيدي ان ..

– تقصد أو لا تقصد فوالله لو وزنت لي قدر وزنها ذهبا ما تركتها لك

– ولكن ..

– ليس من لكن فوالله ان لم تغرب عن وجهي لاجعلن العبيد يربطونك في احدي اشجار الحديقة ولأذيقنك العذاب ألوانا ومضي فارس خارجاً يجرجر أذيال الخيبة ويفيض حزنه فيتساقط بين قدميه فلا تكادا رجلاه تحملانه.

وإذا بسيف الدين يصرخ بصوت مجلجل :

– انتظر يا رجل! .. لا تظن انني لا أعلم أنك تقابل الجارية في السر دون علمي فوالله لو تكرر ذلك منك لأذيقنك وأذيقنها عذابا أليما

استمر فارس في طريقه بينما قدماه تتخبطان وقد امتلأ قلبه رعباً .. ماذا حدث لسيده؟ وكأنه ليس هو .. وكانه شخص آخر .. بل وكأنه قد صار .. قد صار شيطانا

* * *

مرت كل تلك الذكريات برأس سيف الدين وهو واقف وعيناه شاردتان بين يدي الدلال ينادي على بضاعته ويعرضه فيما يعرض للبيع في بلاد الشام .. ورأي جريمته نكراء إنه يستحق ما يحدث له ها قد فرق بين قلبين أحبا بعضهما حبا طاهراً نقيا بين يديه وبعلمه ومباركته وجعل حجته «ثمن الحرية» إذن فليفكر في ثمن حريته هو بينما يقف كعبد ذليل بين يدي المشترين فذاك يتفحصه وذاك يفتح فمه يتفحص اسنانه وكانه يشتري ناقة أو بهيمة فبأي ثمن سيشتري حريته لينتظر ويري ثمن حريته .. كان يري نفسه مجرماً في كل ما فعل، ولكن مهلاً .. ألم تثبت الأيام انه كان علي صواب في فعلته تلك وان هذا العبد اللئيم فارس لم يكن يستحق أن يهبه حريته التي وهبها إياه مجانا؟ ألم يمسك به فيما بعد متلبسا بسرقته؟ أهذا رده للجميل بعد ان اعتقه وجعله سيداً؟ وشرد سيف الدين مرة اخري تاركا للدلال مهمة بيعه بينما عاد لذكرياته .. مرت الأحداث سريعة متعاقبة وكانت الايام متشابهة مملة وما يذكر سيف الدين منها إلا حبه الكبير لابنته بثينة يدللها ويداعبها وبغضه الشديد لابن اخيه نور الدين فلا يطيق رؤياه حتى كرهه الصغير وابتعد عن وجهه تماماً ومرت الايام تجري والشهور تتبعها الشهور ومر عام وبعدها عام وحدثت المصيبة الكبري واختفي الصغير واستشاط سيف الدين غضباً وندم علي كراهيته للطفل

وبحث عنه في كل مكان ومر عامان اخران ذاق فيهما الذل والحرمان من الابن بعد ان أحس بمدي حبه للصغير وأخيراً عاد الطفل ومعه ملك من السماء جميلة رقيقة وها هو يتزوجها .. نعم هي حبيبته سلمي التي أنسته كل ما ذاق من صنوف العذاب وها هو يسافر معها على سفينة والدها حتى يصل الي مصر ويعود والسعادة ترفرف علي قلبه وما تمضي فترة قصيرة حتى تداهمه الفجيعة الكبري واختفاء صغيرته الجميلة بثينة وها هو في ذات يوم اختفائها ولم يكن قد علم باختفائها إلا في اليوم التالي يعود إلي منزله مساءً بعد تعب العمل وبينما يهم بدخول حجرته وإذ به يسمع صوتاً خافتاً من الحجرة المجاورة فإذ به يستدعي العبيد ويحاصر الحجرة ويقتحمها فإذا بالعبيد يمسكون بفارس يكبلون يديه بأيديهم وقد حمل كيسا من المال فأمسكوا به متلبسا بسرقته وصاح سيف الدين صارخا :

– أهذا جزائي منك يا عبد السوء؟

– أرجوك اسمعني يا سيدي

– لا تنطق بكلمة أيها الوغد

– فقط اسمعني ثم اقتلني ان أردت

– ماذا تريد ان تقول؟ أهذا جزائي منك بعد ان وهبتك حريتك؟ ولكن والله لأرينك من هو سيف الدين؟ .. أواستهنت بي وببيتي؟

– اسمعني ارجوك قبل ان تفوت الفرصة

– إية فرصة أيها اللص اللعين؟

وهتف بعبيده قائلا :

– كمموه فلست اطيق سماع صوت ذلك اللعين واربطوه إلي شجرة في الحديقة فكمموه وخلعوا عنه ملابسه إلا ما يستر عورته وربطوه إلي

الشجرة وشدوا يداه حول الشجرة وأمسك سيف الدين بسوطه وانطلق يفرغ به كل غضبه وغله فلم يترك جزءاً من جسده ما شواه بسوطه وأصبح الدم يسيل من جسده حتى شارف المسكين علي الموت ولسانه يزوم من تحت كمامته يريد أن يقول شيئا فلا سمحوا له بالحديث وما وجد منهم آذاناً صاغية وسدوا جميعا آذانهم عن سماعه .. ترى ماذا كان يريد ان يقول؟ .. كيف يمكن لوغد مثله ان يبرر جريمة كتلك بعد كل ما فعلت من اجله؟ .. إنه وغد ولا شك .. أمر العبيد ان يلقوا به خارج المنزل فألقوه واذا بالكلاب تحيط به تلعق جراحه والمسكين يبكي ويبكي وما يقوي علي إبعاد الكلاب و..

وماذا؟ .. مر كل ذلك في ذهن سيف الدين في لمح البصر وهو يقف بين يدي الدلال وما ان أكمل الرجل تجميل بضاعته حتى بدأ المزاد خمسون دينار .. مائة .. مائة وخمسون .. ويا له من ثمن بخس .. ثمن بخس للحرية!

* * *

عاش سيف الدين في ثياب العبيد عند سيده الذي اشتراه ويدعي السيد رابح وكان سيء الخلق الي اقصي درجة فأذاقه العذاب ألونا وتجرع الذل كأساً تلو الاخرى وذاق جسده طعم آلام السياط ولم يكن بموسوعه ان يرضي سيده مهما فعل وكان السيد رابح يظن ان العبد إذا ذاق طعم الراحة، ركن إليها فلم يعط أي من عبيده فرصة للراحة فاذا ما قام احدهم بعمله خير قيام وانهكه التعب وركن الي فراشه لينام وإذا النوم ما يلبث ان يصل الي جفونه حتى يجد من يبلغه ان سيده يطلبه واذا ما تأخر فالويل له

كل الويل حتى ان سيف الدين ما كان يتمني في حياته تلك إلا الموت ولكن أين الموت؟ إنه راحة أين له ان يلوكها؟ .. كثيراً ما فكر سيف الدين في انهاء حياته بنفسه وما ردعه إلا بصيص من الإيمان بالله ما زال نابتا في قلبه كان يتحسس أي موضع في جسده فإذ به ملتهب من آثار السياط .. رباه ماذا فعلت لأجني كل ذلك؟ .. ابتسم لنفسه في سخرية .. ماذا فعلت؟ انسيت ما فعلت بعبيدك بسياطك يا سيف الدين؟ .. انسيت أنك ما كنت تتكلم بلسانك قدر ما تشوي ظهورهم بسوطك؟ انسيت كل ذلك يا رجل؟ .. ولكن ذلك كان لفترة وجيزة حين فقدت زوجتي وابن أخي قبل ذلك كنت اعاملهم كأبنائي حتى انني ما كنت أؤذي مشاعرهم .. اتسمي سنوات طويلة فترة قصيرة يا رجل؟ .. ذق انت إذن فترة قصيرة من العذاب بمقايسك فكما تكيل يكال لك وكما تدين تدان! .. مرت الأيام علي سيف الدين طويلة متثاقلة مملة قاسية كان اليوم بمثابة العام كانت حياته جحيما .. الآن فقط علم ثمن الحرية وقيمتها وأحس بأحاسيس العبيد وآلامهم شعر بظلم الدنيا وبغيها بل شعر بظلم البشر .. البشر الذين يستعبدون بعضهم بعضا أولم يكن هو أحد هؤلاء الظالمين؟ .. ولكن عجباً ففي ايام عزه ما شعر يوماً أنه ظالم .. كان يري الدنيا بعيون الاسياد فيري نفسه أطيب الأسياد وأكثرهم براً بعبيده .. ويلي .. والله لإن حررني الله من هذه الغمة لأحررن كل من تحت يدي من عبيد .. أرجوك يا إلهي .. انظر إلي مذلتي وأجبني .. أرجوك يا إلهي .. أرجوك .. وتنحدر من عينيه الدموع تترقرق علي وجنتيه وتنحدر ..

وتنحدر

* * *

ظل سيف الدين في هذا العذاب عامين كاملين حتى وصل الي ذروة اليأس والأسي ونحل جسده وتغيرت هيئته وظهرت عظام وجنتيه بارزه في وجهه إلي ان كان يوم وإذا بسيده رابح يحضر الي المنزل وبصحبته تاجر تظهر عليه مظاهر العز والثراء وإذا بسيده يأمره بتجهيز الطعام لضيفه الكريم وبينما يصف سيف الدين أطباق الطعام علي المائدة فإذا بالضيف ينظر اليه ويطيل النظر .. ترى من هذا الرجل؟ .. ولماذا يطيل الي النظر؟ أيعرفني؟ .. ربما؟ أشعر أن وجهه ليس بغريب علي؟ ولكن أين رأيته؟ .. لا أدري .. إن ظلم الأيام وقسوتها قد انستني نفسي وانستني كل من أعرف ولم أعد أذكر غير ابنتي المسكينة التي اختفت فجأة ولا أدري ما أصاب الصبية وانحدرت الدموع تغرق وجنتيه وما أن مضى مبتعدا وإذا بالضيف يستأذن السيد رابح ثم يستدعيه قائلا :

– اسمع يا هذا!

اقترب وهو يخفض جبينه بذله مطرقا برأسه نحو الأرض

– أمرك يا سيدي

– من انت ؟

– انا سيف الدين يا سيدي

شرد الضيف قليلاً فلما طال شروده قال سيف الدين :

– هل تأذن لي بالانصراف يا سيدي؟

انتفض فجأة وأفاق من شروده وقال :

– بل انتظر! .. فهل انت من البصرة ؟

– نعم يا سيدي

– فلتنصرف إذن!

انصرف سيف الدين وأفكاره تلعب برأسه كيف عرف أنني من البصرة ؟ إذن فشكوكي في محلها إنه ولاشك يعرفني .. وانا أذكر انني رأيت هذا الوجه ولكن ذاكرتي ما عادت تسعفني .. ما ان جلس الضيف يتناول طعامه مع السيد رابح حتى ابتدره الاخير قائلاً :

– هل ستعطيني الصفقة كاملة يا سيدي ؟

– ولكن يا سيد رابح اصدقائي في السوق كثيرون وكل يطمع في جزء منها

– دعك من الصداقة في العمل المهم هي المصلحة .. سأعطيك ضعف ما عرضوا

– ولكنك بذلك ستخسر مالك يا سيد رابح

– انت لا تدري فيما افكر يا سيد زياد

– فيما تفكر يا سيد رابح ؟

– انه الاحتكار يا سيد زياد

– الاحتكار؟

– نعم فما ان احتكر سوق السكر حتى ابيعه بالسعر الذي اريده انا

– وهل سيسمح لك الوالي بذلك ؟

– دعك من الوالي فهو ملك ليميني

– وكيف ذلك ؟

– سحر المال يا صديقي .. وافقني وستري ما سأفعل

– ولكن ضميري يا سيد رابح ..

– فلتضع المال الذي اعطيك في مواجهة ضميرك فلن يتحرك ساكنا

– سانزل عن ضميري هذه المرة وليسامحني الله ولكن لان لي عندك طلب آخر

– طلباتك أوامر يا سيدي زياد

– أريد ان اشتري منك عبدك سيف الدين هذا

– والله ما كنت أبيعه ولو بوزنة ذهبا فهو أفضل عبد لدي ولكني لا استطيع ان ارفض لك طلبا .. إنه هدية مني لك بعد اتمام الصفقة

نهض السيد زياد مصافحا صديقه وشد على يده في قوة قائلا :

– إذن فقد اتفقنا . . اتفقنا يا رجل

* * *

مر يومان تمت خلالهما الصفقة كاملة وجاء موعد تقديم الهدية فمد السيد رابح يده بالصك إلي السيد زياد قائلاً :

– وهاك هديتي يا سيد زياد كما وعدتك بالضبط

مد السيد زياد يأخذ الصك من يد السيد رابح بينما يقول بامتنان:

– اشكرك يا سيد رابح

– لعلها بداية تعاون مثمر بيننا يا سيد زياد

– لا تظن انني سأكرر ما حدث يا سيد رابح فضميري ما يزال يؤرقني

– انا متأكد ان المكسب السريع سيعيدك إليّ يا سيد زياد فانا خبير في تلك الأمور

– لندع ذلك للأيام لتثبت من منا علي صواب يا صديقي .. والآن استدع لي سيف الدين فإني راحل

– ألا تمكث معنا أياماً حتى تنال منا واجب الضيافة يا صديقي ؟

– اعذرني لانني في عجلة من أمري

أسرع السيد رابح يستدعي سيف الدين ويأمره ان ينطوي تحت امرة سيده الجديد السيد زياد .. فرح سيف الدين أيما فرح عندما عرف ان سيده رابح قد باعه لآخر وان كانت العبودية هي العبودية سواء كانت عند السيد رابح أو السيد زياد إلا انه كان يفكر في انه قد تخلص من سوء أخلاق سيده القديم وعذابه على يديه وليكن بعد ذلك ما يكون من سيده الجديد فهما بلغ به الأمر فلن يتعدي قسوه سيده القديم فامتلأ سيف الدين بالبهجة وملا الأمل قلبه من جديد .. ما هذا يا سيف الدين؟ أوصل بك الحال إلى أن يصبح ذروة الأمل لديك ان تنتقل من سيد الي سيد بعد أن كنت أنت السيد المطاع؟ .. سبحان الله الذي يغير ولا يتغير سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء ويرزق من يشاء بغير حساب

– وهل كان السيد الجديد بارا بك يا شيخنا ؟

– سأقص عليك ذلك في الصباح يا شيخ نصر الدين

– ولماذا لا تكمل الان يا شيخنا ؟

– لان ليلنا قد انتصف ونال منا التعب يا شيخنا .. أما الآن فإلي النوم

– إلي النوم إذن يا شيخنا .. إلى النوم

* * *

سافر السيد زياد عائداً الي مصر بقافلته التي افرغها من السكر وأحل محلها أجود بضائع الشام ليبيعها في مصر ولم يكلف الرجل سيف الدين خلال الرحلة بأي عمل وما أثقل عليه بأي شيء حتى ان سيف الدين شعر أن الدنيا سترضي عليه من جديد وأن سيده الجديد انسان طيب وسيرتاح

كثيراً معه ومرت بذهنه الأيام السالفه وضربات السياط التي اعتاد عليها جسده ولكن الفرصة مواتيه فلماذا لا يهرب من سيده؟ فهو ليس بعبد واذا استطاع الهرب والعودة إلي بلاده امكنه ان يعود الي قصره وعزه وجاهه لابد وأن زوجته سلمي الجميلة تبحث عنه في كل مكان الآن .. تري كيف حالها؟ أما زالت تذكره ام انستها الايام والسنون إياه؟ لكم اشتاق اليها والي صغيره نور الدين .. تري أهو بخير؟ أيذكره؟ أيسأل عنه؟ .. من يدري؟ .. ربما .. ما ان واتته فكرة الهرب حتى وضعها موضع التنفيذ .. لم يكن يؤرقه سوى سيده الجديد طيب القلب الذي وثق به وتركه يذهب ويجيء ويغدو ويروح حسب هواه فما ذنب الرجل؟ أهكذا يجازيه علي طيبة قلبه وإحسانه معه؟ ولكن ما ذنبي أنا حتى أترك ما لي من جاه ومال وعز وكرامة واترك ابنتي لتضيع الي الأبد وأترك ابن أخي الذي هو أبني وأترك زوجتي في مواجهة الحياة بلا سند أو رفيق؟ .. فليغفر الله لي ما يصدر مني في حق هذا السيد الطيب فإذا ما توانيت ووصل بنا الركب إلي مصر حيث يقيم السيد زياد حينذاك يصبح لا فكاك من العبودية وتنحدر نسبة نجاحي في الهرب الي الصفر أما هنا فسيبحث عني قليلاً ثم يتركني ويستانف رحلته بينما أعود انا في اتجاه العراق .. ولكن كيف لي ان أدبر المال اللازم لسفري وعودتي الي دياري؟ .. الحل الوحيد أن اجد قافلة راحلة إلي هناك فاصطحبها بعد ان أعد قائدها بمكافئة مجزية إذا ما أوصلني إلي دياري .. سيدبر الله الامر ولو اضطرت الي التسول أمام المساجد .. كل شيء يهون في سبيل العودة إلي حياتي ومواصلة بحثي عن ابنتي .. منذ تلك اللحظة وذلك اليوم وضعت خطة هروبي قيد التنفيذ وكانت الخطة تتلخص في انني سأتمارض وأتباطأ في

السير مع القافلة حتى أصبح سائراً في آخر الصف وما ان يعتاد الجميع علي وضعي ذلك حتى اتحين فرصة ينحني فيها طريق القافلة خلف جبل أو تبة حتى أختبئ خلفها دون أن يلحظني أحدهم وما ان يكتشف الجميع غيابي بعد يوم أو يومين حسب ما يواتيني القدر من حظ سيكونون قد قطعوا اشواطا الي الامام نحو القاهرة وسأكون أنا قد قطعت اشواطاً الي الخلف نحو البصرة وبدت لي الخطة متقنة وتريثت في تنفيذها حتى واتتني الفرصة وانحنت القافلة خلف تبة مرتفعة في طريقها فإذ بي انحني خلف صخرة أرقب القافلة لفترة ثم ركضت مستتراً خلف التبة وانتظرت حتى ابتعدت القافلة وبدات في الرحيل عكس الاتجاه .. كان قلبي ينبض وينبض حتى خيل الي انني اسمع نبضاته بأذني كنت اعلم انها فرصتي الوحيدة وقد تكون الأخيرة للعودة إلي بلادي واستعادة حياتي ولا مجال للفشل فالفشل يعني الموت ولا شيء غير الموت، هذا هو قانون العبيد وهذه حياتهم فما من ثمن لحياة عبد وحكم الموت من فم سيده اسهل من الحكم بقتل حشرة وحتى لو كان سيده طيباً ويشفق عليه إلا ان الغضب عليه اذا ما أمسك به سيعميه .. انها مسألة كرامة لا يتهاون فيها الأسياد وما كان هو نفسه لو هرب منه عبد أن يتهاون في مثل ذلك الأمر وإلا لصار اضحوكة بين الأسياد واستهان به العبيد .. التفت خلفي وما ان رفعت وجهي حتى سقط قلبي بين قدمي .. كان السيد زياد يقف أمامي وخلفه خمسة من العبيد بينما يقول ساخراً :

– وجدتني طيباً فخلت انني غبياً ايضا؟

– والله يا سيدي ..

– لا تقسم فلست أصدقك

واشار إلى العبيد قائلا في صرامة:

– امسكوا به

اسرع العبيد يمسكون بي ويكبلون حركتي بينما يقول أحدهم :

– هل نقتله يا سيدي؟

– لو مس أحدكم شعره من رأسه لقتلتكم جميعا

نظروا الي بعضهم بعضا مشدوهين وقد بدت البلاهة واضحة علي وجوههم فهذا الجواب كان آخر ما كانوا يتوقعون وما كانت دهشتي بأقل من دهشتهم وقد كنت لا اتوقع سوى الموت .. رباه .. أهذا الرجل يعرفني حقا؟ ..وهلاألاعرفه انا؟

انني لا أذكره وان كان وجهه ليس بغريب علي

– إذن فكيف عرف السيد زياد بالخطة يا شيخنا ؟

– لقد كان السيد زياد ذكيا خارق الذكاء وقد كان في بداية حياته عبداً فكان يدرك الاعيب العبيد وما ان بحث عني مرة ثم اخري وعلم بتأخري خلف القافلة حتى فهم الخطة

وما ان مرت القافلة بأول منحني يصلح لتنفيذ تلك الخطة حتى عهد إلي أحد عبيده بمراقبتي دون أن أشعر ولما أنبأه ببدء تنفيذ خطتي دار مع عبيده حول التبه وإذا بهم يفاجئونني من الخلف

– يا لحظك العاثر ! .. يا للحظ العاثر يا شيخنا

* * *

اغتممت كثيرا لفشل خطتي وتعجبت أكثر لأن ما حدث مر دون عقاب .. ليته عاقبني بالموت فلم تعد لي في الحياة من مطمع لقد كرهت كل

شيء .. كل شيء .. حتى حياتي نفسها قد كرهتها .. لقد تحولت الي جحيم وها آخر أمل لدي يتبخر في الهواء وها هو السيد زياد يعهد بي إلي عبد آخر يلازمني كظلي حتى تصل القافلة الي القاهرة وبرق لي فجأة أمل جديد .. تذكرت أبا زوجتي في مصر علني استطيع الوصول اليه فيشتريني من سيدي ويعيدني الي بلادي .. سألت بعض العبيد رفاقي عنه .. الشيخ ابراهيم المصري إن كانوا قد سمعوا عنه أو عرفوه .. هوي قلبي بين قدميي وانهار املي واحدهم يجيبني :

– ومن لا يعرف هذا الشيخ الطيب؟ فما من سيد أو عبد في المدينة إلا وسار في جنازته

– فهل توفي الرجل؟

قلتها بكل الأسي واللوعة اللتين احسست بهما في داخلي .. سالته:

– وأين ذهبت ثروته وامواله وقصوره إذن ؟ أما من أحد من أقاربه بمصر ؟

– ليس له إلا ابنته وقد حضرت منذ فترة وباعت كل شيء عدا سفينة كان يملكها وسارت بها تزور كل ميناء تبحث عن زوجها الغائب

– أولم تعد منذ ذلك الحين ؟

– لم يرها أحد منذ ذلك الحين

ألم يكن معها طفلاً أو طفلة ؟

وسقط قلبي بين قدميي مرة اخري والرجل يهز رأسه نفيا؟

– لم يكن معها من أحد قط

* * *

ما ان وصلت القافلة الي القاهرة واستقر سيف الدين به الحال في منزل سيده زياد حتى ارسل في طلبه فهوي قلبه بين قدميه وراودته الافكار ها هو لا ينتظر وصولنا حتى يعاقبني علي هروبي ويلي .. لم يعد جسدي يتحمل الألم والعذاب .. ليته يقتلني ويريحني من حياتي .. انطلق الي غرفة سيده و ..

– هل طلبتني يا سيدي؟

– ألم تتذكرني حتى الان يا سيدي سيف الدين؟

ملأت الدهشة والعجب وجهه وهو يسمع سيده يناديه سيدي سيف الدين .. لعله يسخر منه ولكن انا متأكد انني اعرفه فوجهه ليس بغريب علي .. راح يفتش في ذاكرته فلما اجهده التعب في البحث داخل ذاكرته غمغم في استحياء :

– اعذرني يا سيدي

– لا تقل سيدي .. إنك انت سيدي .. اما انا فعبدك زياد .. أنت من حررتني ودعوتني ابنك .. انا مدين لك بحياتي وبكل ما أملك

وركض زياد نحوه فاتحا ذراعاه يرتمي بين احضانه ويقبل وجنتيه ويخلط دموعه بدموع الرجل وسيف الدين لا يصدق عيناه أو أذناه وقدماه لا تكادان تحملانه من الفرحة

– انت ابني زياد ؟ لا أصدق عيناي

– أتذكرتني يا سيدي؟

– لا تقل سيدي! .. فانت الآن سيدي

– لم أكن أبداً سيدك يا سيدي وما سمحت لنفسي بذلك

– ألم تبتعني من السيد رابح؟

– والله ما سمحت له أن يبيعك إياي وانما طلبت منه ان يكتب صكا بحريتك

– انظر ها هو الصك

وناوله الصك ففضه وما ان قرأه حتى أبشر وملأتالدهشة والفرحة وجهه

– إذن فقد اثمر الخير الذي فعلت منذ سنوات يا ابني

– بأكثر مما تتصور يا أبي

– كيف؟

– سأقص عليك كل شيء يا سيدي بعد ان تطمئنني عليأحوالك

– اشكرك يا سيدي

– أرجوك لا تنطق "سيدي" تلك مرة أخري

ولتنادني كما تعودت دائما "يا ابني"

ابتسم سيف الدين ابتسامة واسعة بينما يقول :

– والله ما أدري كيف أرد جميلك يا ابني

– ولماذا ترد وقد سبقت بالجميل؟ .. انا مدين لك برقبتي وحياتي وكل ما انا فيه من عز وجاه .. ومدين إليك اكثر بثمن حريتي

– لقد طوقت رقبتي بثمن اكبر بكثير من ثمن حريتك يا ابني

– ألا تذكر ماذا كان ثمن حريتي يا أبي؟

– لا أذكر شيئاً يا ولدي فقسوة الأيام قد محت ذكرياتي حتى لا أكاد أذكر اسمي

– لقد كانت ثمن حريتي اختي بثينة

قال في اسى:

– وأين هي بثينة يا أبني؟ .. لقد ضاعت الصبية مني

ربت على كتفه بينما يقول؛

– اطمئن يا سيدي .. إنها بخير

قال في لهفة واضحةً :

– وهل تعرف أين هي؟ .. تكلم ارجوك؟

– انها في بيتك يا أبي

فغر فاه في دهشة بالغة بينما يردد:

– في بيتي؟

لقد أعدتها بنفسي إلى منزلك معززة مكرمة يا أبي

بدت الفرحة على وجه الرجل بينما يردد في ذهول؟

– أنت أعدتها؟

– ومعها الآن ابنك فارس يحميها ويحرسها ويرعاها مع الصبي نور الدين حتى تعود اليهم بسلامة الله وتعود السيدة سلمى

– أتقصد ذلك اللص الخائن فارس؟

– فارس ليس بخائن ولا لص .. ليس بخائن ولا لص يا أبي .. صدقني

* * *

ما ان حرر سيف الدين عبيده الخمسة عمرو وخالد وهلال وزياد وفارس حتى انطلق الجميع لا تسعهم الدنيا من الفرحة وسار كل منهم في اتجاه الي بلاد الله الواسعة الا فارس فقد ترك قلبه في بيت سيده مع الجارية الحسناء "حبيبة" فكان قلبه يربطه بالمدينة والمنزل فلم يستطع أن يجد لقلبه فكاكاً وظل يقابل حبيبته سراً ويبثها حبه الطاهر ويفوز من عينيها بنظرة أو ابتسامة تصبر قلبه حتى يلتئم شملهما وبعد فترة من الزمن لم

يطق علي بعدها صبراً فذهب الي سيده يطلبها منه ظناً منه ان سيده وقد وهبه حريته ومنحه بنوته فلن يضن عليه بها ولكن لسوء حظه وليتم قدر الله اختار وقتا من أصعب الأوقات وأحلكها سوادا على سيده سيف الدين وقد اعماه حبه عن التروي أو التفكر في المصائب التي يرزح فيها سيده فما كان من سيده إلا أن طرده من بيته وكسر قلبه فخرج من منزله والكآبة تتساقط من وجهه لا يصدق ما حدث من سيده ولكنه كان يعذره ويلوم نفسه علي اختياره لأسوأ الأوقات وكان ما في قلبه نحو سيده من حب لا ينفذ ولو قتله فهو ولي نعمته وطوال عيشه في منزله باستثناء تلك الفترة العصيبة التي مر بها لم يعامله إلا كإبن له ولم يحمله فوق طاقته قط وحين نذر نذره كان فارس هو أول من اختار ليعتقه .. يذكر يوم اعتقه وكيف بكي بدموعه حزنا علي فراقة وكيف احتضنه كصديق وكيف وهبه بنوته أبعد كل ذلك يمكن لحبه ان يزول من قلبه نحو هذا السيد الطيب الحنون ؟

مضي فارس ولكنه لم يستطع ان ينفذ كلام سيده ويبتعد عن حبيبة فقد كان قلبه يشده اليها وليس له علي قلبه من سلطان وظل يقابلها سراً ويبثها حبه وحنانه وذات ليلة وقد تجاوز الوقت منتصف الليل وجمبع من بالمنزل نيام وبينما يتهامسان في الحديقة وإذ بمجموعة من اللصوص الملثمين يتسللون إلى المنزل وتهم حبيبة بالصراخ فيضع فارس يده علي فمها ويهمس لها أن تهدأ وإلا قتلوها وقتلوه شر قتلة وأقنعها بأنه سيراقبهم حتى يعرف مكانهم ويدل سيده عليهم فتقبض عليهم الشرطة متلبسين بجريمتهم وظل فارس يراقبهم دون ان يشعروا به واستولي اللصوص علي المال وكادوا أن ينصرفوا وينقضي الأمر وإذا بالصغيرة بثينة

تستيقظ من نومها فجأة وتسمع جلبة في المنزل فتركض خارجة من حجرتها ظنا منها أن ابيها قد حضر ..

– أبي .. أبي

وما ان رأت الصغيرة اللصوص حتى همت بالصراخ فاسرع احدهم يضع كفه على فيها خشية افتضاح امرهم وسقط من الرجل كيس من النقود في ذروة ارتباكه ولم ينتبه إليه وما ان ازال كفه عنها حتى همت بالصراخ ثانية فلم يجد بداً من أخذها معه وما ان رأهم فارس يحملون الصغيرة معهم حتى نسي المال تماما وما فكر إلا في اخته بثينة .. فكر أن يهاجمهم ولكنه لم يستحسن الفكرة فهم مسلحون وقد يقتلونه قبل ان ينتبه اليهم احد وتضيع الصغيرة فظل يراقبهم من موضعه يراهم ولا يرونه وانطلقوا بالمال والصغيرة بين ايديهم وإذا بأحدهم يأمر الآخر بأن يذهب بالصبية إلي نخاس في مدينة قريبة فيبيعها له ليتخلصوا منها ويفيدوا بثمنها ثم يلحق بالباقين في وكرهم فإذ به يجد نفسه يتجاهل اللصوص ويراقب من يحمل الفتاة فقط وإذا بالرجل يدخل الي بيت النخاس مصطحبا الصبية ويخرج بدونها ممسكا بحفنة من الدنانير ولم يهتم فارس بان يتبع اللص وانما خشي من ضياع الصبية فترك اللص يذهب وذهب يطرق باب النخاس ..

– ماذا تريد يا هذا؟

– لقد باعك أحدهم الآن صبية صغيرة أليس كذلك؟

– وما شأنك؟ هل تراقبني يا رجل؟

– أريد شراء الصبية يا سيدي فبكم اشتريتها ؟

ابتسم الرجل في خبث قائلا :

– لا ينبغي ان يكون السؤال هكذا يا عزيزي

– كيف يكون إذن؟

– لا يكون بكم اشتريتها؟ وإنما بكم تريد بيعها؟

– فليكن يا سيدي .. كم تريد؟

– الصبية فائقةالجمالًلً وقد اوصاني الكثيرين ممن لم يرزقهم الله ابناءاً أن ..

– أعلم يا سيدي فكم تريد؟

– يبدو انك متلهف لشرائها

– انها اختي يا سيدي و ..

– دعك من تلك الحكايات فقد سمعتها كثيراً

– إذن فكم تريد؟

– خمس مائة دينار

– إنها طفلة صغيرة و ...

– كل حر في بضاعته

وأغلق الرجل الباب في وجه فارس ولكنه ظل يطرق الباب في اصرار حتى فتح له النخاس ثانية

– اسمع يا سيدي إنني اوافق علي المبلغ ولكن أمهلني حتى أدبر المال

– سامهلك حتى مطلع الفجر فإن لم تحضر المال فأنا في حل من وعدي

– اشكرك يا سيدي.. سأعود قبل الفجر إن شاء الله

وأسرع فارس يسابق الزمن الي منزل سيده وسأل عنه فلم يجده ولما تأخر كثيرا خفق قلبه واحس ان الوقت يداهمه وفجأة تذكر كيس النقود الذي سقط من أحد اللصوص في ذروة ارتباكه وفكر في التسلل إلى داخل

المنزل واحضار كيس النقود وسيعود في الصباح مع بثينه ومؤكد سوف يسامحه سيده حين يعلم أنه قد انقذ ابنته وقد يكافئه ويزوجه من حبيبته وما ان طرأت في ذهنه تلك الفكرة حتى خال نفسه سندباداً يعبر البحار السبعة ليصل الي محبوبته وانطق ينفذ فكرته ولكن السفن تأتي بما لا تشتهي الأعين وانقلب السحر على الساحر وانقلبت خطته وبالا عليه وإذا بالعبيد يقبضون عليه وبيده كيس النقود وإذ به يهم ان يقص على سيده ما حدث ويطلب منه أن ينجد ابنته ولكن سيف الدين لم يعطه فرصة للكلام وسد أذنيه عن سماعه .. سد أذنيه تماما ..

– فهل تعني انني لو سمعت له لما حدث ما حدث؟

تنهد زياد وصمت لبرهة ثم قال:

– لقد كان ما كان حتى يتم ما سُطر علي ألواح القدر فلا تندم يا سيدي علي ما حدث

هز سيف الدين راسه في اسى قائلا :

– ولكن التروي كثيرا ما يغير حياة الإنسان خاصة في الحظات الفاصلة

– إنه القدر يا سيدي وما كان لحذر أن بغير قدر .. أبدا

* * *

كان ما كان من سيف الدين واتهامه لفارس وشي جسده بالسياط بعد تكميمه وربطه في شجرة وكلما حاول المسكين ان يزووم ازداد به جلداً فما اعطاه فرصة أن يفتح فاه أو يبرر فعلته أو يدافع عن نفسه وكاد فارس أن يصل إلي حافة الموت وإذا بسيف الدين يأمر عبيده فيلقونه خارجاً وقد سقط في غيبوبة عميقة لساعات وإذا صديقه خالد زميل عبوديته قد وصل

البصرة بالأمس وبحث عن فارس فلم يجده فبات ليلته لدى صديق له ونهض من نومه صباحا وصلي الفجر وغلبه الحنين لذكريات طفولته فاقترب من منزل سيده القديم فهاله ما رأي وإذ بصديقه ملقى علي الارض والكلاب تلعق جراحه فالتقط حجرا من الارض أخاف بها الكلاب وأبعدها عنه ثم اقترب منه يرفع راسه عن الارض بينما يقول في لهفه :

– ماذا حدث يا صديقي؟

لاحظ الكمامة على فمه فأزالها ..

– دعك مما حدث واخبرني هل تملك خمسمائة دينار؟

– نعم .. ولكن لماذا ؟

– هيا بنا .. لا وقت للشرح

– إلي أين؟

– سأقص عليك ما حدث في الطريق

وتحامل المسكين علي نفسه متناسيا كل آلامه وما كان يذكر إلا ان اخته بثينه في خطر وما كاد يصل مع صديقه إلي بيت النخاس حتى كان الفجر قد سبقهم اليه بساعات فخرج النخاس إلي السوق ليعرض بضاعته وقد ظن ان فارس قد خدعه ولن يعود فسألا عن مكانه و بحثا عن موضعه وما هدأا حتى وجداه فتنفسا الصعداء، ولكن ما ان نظرا الي بضاعته فما وجدا الصغيرة معه حتى انهارات امالهما وسقط قلبيهما بين اقدامهما ..

– ارجوك يا سيدي اين الصبية؟

وأخرج خالد صرة من النقود من بين ملابسه بينما يقول:

– لقد احضرنا المال .. ها هو

– لقد تأخرتما كثيراً يا سيدي فلقد بيعت الصبية

– ويلك! .. فلمن بعتها؟

– لتاجر غريب

– ألا تعرف من هو .. أين يسكن ؟

– للأسف فانا لم أره من قبل

– تذكر يا سيدي أرجوك

– انني اقابل الكثير من الرجال يوميا هذا يبيع وهذا ...

مد خالد يده نحو الرجل بكيس من النقود بينما يقول :

– خذ هذا لتتذكر ما قد يفيدنا يا سيدي ارجوك .. أي شيء

– لقد تذكرت .. لقد سمعته يقول لعبيده اسبقوني بالصبية الي السفينة واستعدوا للرحيل

– ومتي كان ذلك؟

– منذ ساعة تقريباً

و دونما اتفاقركض الشابان يسابقان الريح ويتسابقان ..

يتسابقان إلى الميناء

* * *

ما ان وصل الشابان إلي الميناء حتى فوجئا بالسفينتان الراسيتان تسحبان المراسي في ذات الوقت وتهمان بالرحيل واذا بالرجلين ينظران الي بعضهما البعض ويتجه كلا منهما إلي احدي السفينتين دونما اتفاق وإذا بالسفينتين تقلعان تقل كلا منهما إلي اتجاه معاكس وكلا منهما يقتل سفينته بحثاً عن الصبية الي ان وجدها فارس فتنهد في عمق ثم زفر كل ما

في رئيته من هواء دفعة واحدة وارتاح باله وتنفس الصعداء وفجأة تذكر شيئاً مهما فأخذ يتحسس ملابسه في قلق بالغ ثم ضرب الارض بقدميه في يأس .. ياللحظ العاثر لقد نسيت ان آخذ المال من خالد في ذروة ارتباكي وقلقي وها انا لا أملك إلا عشرين ديناراً .. كيف اقنعهم ببيعها لي بهذا الثمن البخس؟ .. ويلي لقد أضعت الصبية لقد تعقدت الأمور أكثر وأكثر .. ولكن ما تزال الفرصة سانحة والوقت امامي فلأبحث عن عمل علي ظهر السفينة .. سأعمل ليل نهار حتى استعيد اختي وأعود بها فأسر أبي .. أبعد كل ما نالك منه يا فارس وتدعوه "ابي" ؟ .. ويلك يارجل! .. ولكن لا .. هو أبي هو سبب حريتي وانا مدين له بحياتي ولو قتلني سيظل أبي وحياتي ملكه .. بحث عن عمل على سطح السفينة دون جدوى .. وصل إلى حد اليأس .. لم يعد أمامه إلا ان يختطف الصبية .. ضميره يؤنبه علي تلك الفكرة ولكن ما البديل .. الضرورات تبيح المحظورات .. لا سبيل امامه ليسلكه سوى هذا السبيل .. ولكن كيف يختطفها بينما هو علي سفينة محدودة؟ أين يهرب بها؟ وأين يخبؤها .. ما ان يفعل فعلته حتى تقوم الدينا ولا تقعد ثم ان الصغيرة مع زوجه الربان .. سيستشيط الربان غضبا وسيفتش السفينة شبراً شبراً ولن يهدأ له بال حتى يعثر علي الفتاة ومن اختطفها وقد يحكم عليه بالموت فيلقي من ظهر السفينة وقد علق حجر رحى في رقبته وتضيع الصغيرة إلي الابد .. لم يكن يفكر في مصيره بل في مصير الصبية إنها اخته بالفعلً .. لكم لعب معها ولاعبها؟ لكم داعبها؟ .. لكم تسمع ضحكاتها ؟ لكم سعد بابتساماتها .. كان يحب الصغيرة أكثر من نفسه .. نعم هي اخته وسبب سعادته وثمن حريته .. تروي في افكاره وقرر انه لابد وان ينتظر الي ان ترسو السفينة في اي

ميناء وحينئذ سينفذ خطته والان عليه ان يراقب زوجه الربان والصغيرة في صمت وألا يعلم أحدا بصلته بالصبية حتى اذا ما نفذ فعلته لا تحوم حوله الشبهات والشكوك وبدأ في خطته وراح يراقب الصبية محاذرا أن تراه فتبتسم له فتظهر صلتها به ومرت الأيام والسفينة تنتقل من ميناء إلي ميناء وتفرغ بضائع وتشحن بضائع وفارس لا يجد الفرصة لتنفيذ خطته واختطاف الصغيرة فلقد أحبت زوجة الربان الصبية واتخذتها ابنتها ولم تكن تتركها لتغيب عن ناظريها لحظات .. كانت زوجة الربان عاقرا لا تنجب فما ان احضرها لها زوجها كهدية حيث أعجبه جمال الصبية حتى اتخذتها ابنة لها واعجبت بجمالها وبراءتها ورقة ضحكاتها وابتساماتها فتعلقت بها تعلقاً شديداً ومازالت الحال علي هذا المنوال حتى وصلت السفينة الي مصر واصطحب الربان زوجته وابنته التي تبناها الي القاهرة وفارس خلفهم يراقبهم ولا يدعهم يغيبون عن ناظريه حتى نزل الربان عند اخيه في القاهرة فانتظر فارس الي أن حل الظلام فوضع لثاماً علي وجهه واستطاع ان يتسلل الي حجرة الضيوف و ينسل بالطفلة خارجاً بينما كانت نائمة وما ان وصل الي الشارع حتى تنفس الصعداء واخذا يعدو بها بأقصي ما يستطيع من قوة بينما يفكر والآن اين يذهب بها؟ فما ان يبزغ الفجر حتى يجد الشرطة وقد انتشرت في كل مكان تبحث عن الصبية فلا يستطيع ان يمشي بها خطوة واحدة دون أن تثار حوله الشبهات .. انقذني يا إلهي وإلهمني الحيلة والتصرف السديد! .. ماذا أفعل يا إلهي وفجأة قفزت الي ذهنه فكرة راح ينفذها .. لقد تذكر صديقه زياد الذي جاءه بعد ان اعتقا معاً وطلب منه ان يرافقه الي القاهرة ليعملا معا في التجارة فلم يوافق ان يترك البصرة بسبب حبيبته التي أبى أن يتخلى عنها

.. ولكنه يذكر أنه اخبره ان له صديقا يملك حانوتا مقابل لمسجد السيدة زينب بالقاهرة وانه سيقصده ويسأله عن عمل وما ان تذكر حتى اخذ يسأل العامة حتى اوصلوه الي المسجد واضطر الي الانتظار بجوار مسجد السيدة زينب حتى بزوغ الفجر حيث ابتدأت الحوانيت تفتح ابوابها فمر عليها حانوتا حانوتا يسأل عمن يعرف شيئاً عن زياد حتى أجابه احدهم :

– وماذا تريد منه يا ابني؟

– انه صديق قديم ارجو أن تدلني عليه .. كيف حاله الان يا سيدي

– هو بخير .. لقد صار من اغني تجار القاهرة وله قوافله التي يسيرها بنفسه .. ساصطحبك اليه .. ساصحبك إليه بنفسي يا ابني

* * *

"لست أصدق عيناي"

نطق زياد بتلك العبارة في فرح بينما يحتضن صديقه ويضمه الي صدره في قوة ثم استطرد قائلا :

– كيف وصلت الي هنا ؟ ومن الصغيرة؟

– اما كيف وصلت فهي قصة طويلة تحتاج إلي فنجان من القهوة لاجلس واقصها عليك .. وأما عن الصغيرة أفلا تعرفها؟

نظر زياد الي الصبية في دهشة ثم قال صائحا :

– أهي ..؟

– نعم هي اختنا وثمن حريتنا بثينة

انحدرت دموعه وامسك بالصغيرة يحتضنها ويقبلها ويداعبها لكم اشتاق إليها وإلي سيده سيف الدين .. دمعت عيناه بينما يقول:

– اين سيدي سيف الدين؟

– هذا ما ستتضمنه حكايتي فأين القهوة يا صديقي؟

– القهوة بعد ان نتناول طعامنا و ..

وأسرع يأمر الخدم والعبيد فأعد الطعام وما ان انتهيا من تناول طعامهما وإطعام الصغيرة حتى جلس فارس يقص عليه ما حدث وما كان وصديقه في عجب ودهشة حتى انتهي من قصته ثم سال صديقه عن نجاحه فأجابه :

– إنه كفاح طويل مع الأيام يا صديقي

وأمر الخدم فأعدوا له أفخم حجرة في المنزل فنام نوماً عميقاً وكأنما يعوض ما فاته من نومه خلال حياته بأكملها وعهد زياد بالصغيرة الي إحدي جواريه لترعاها فاخذت تداعب الصغيرة وتلاعبها وتسلب منها ضحكاتها .. وما ان استيقظ فارس حتى جلس إلي جوار صديقه يسمع حكايته وسر نجاحه و سر ثروته وجاهه وما ان انتهي من قصته حتى عرض عليه ان يظل معه في مصر فيسلمه كل اعماله لأنه يثق به ثقة عمياء فرفض بأدب ووعده أن يفكر في ذلك الأمر بعد ان يطمئن علي وصول الصبية إلي البصرة وعودتها الي حضن أبيها وغير زياد مسار قافلته التالية الي العراق بدلاً من الشام وأصر علي اصطحابهما بنفسه لانه يشتاق إلي سيده سيف الدين وما ان وصلا الي البصرة حتى أسرعا الي منزل سيف الدين يصطحبان الصغيرة التي ما أن رآها العبيد حتى اسرعوا نحوها فرحين مهللين هذا يلاعبها وهذا يداعبها وما هال الرجلين إلا غياب سيف الدين وقد سافر ليبحث عن الصبية وأما سلمي زوجته فبعد أن غاب زوجها طويلاً وورثت السفينة عن ابيها خرجت لتبحث عن زوجها وعن

الصغيرة بثينة بعد ان تركت نور الدين في المنزل وعهدت به للجواري والخدم اشفاقا عليه من مشاق السفر وأصر فارس ألا يغادر المنزل وعاد بإرادته إلي العبودية فظل في المنزل يخدم كسائر العبيد والخدم ويرعي مصالح سيده حتى يعود فيسلمه منزله وابنه وابنته وأقسم أنه لن يتحرر من العبودية حتى يتم له ذلك .. انحدرت الدموع تغرق وجنتي سيف الدين بينما يسمع تلك القصة من زياد ثم قال في اسى:

– ويحي لقد ظلمت المسكين ظلماً بائناً وظننته لصا حقيراً خائنا

– لا تحمل نفسك فوق طاقتها يا أبي فلم تك تعلم

– لقد كنت مغروراً غبياً سددت أذني عن سماع الحق

ونهض سيف الدين يودع زياد ويستأذنه أن يذهب للبحث عن زوجته بعد ان اطمئن لعودة ابنته فما أذن له إلا بعد ان أكرمه إكراما مفرطا وأمده بالمال الوفير والمؤن التي تعينه علي سفره وبحثه عن زوجته وطاف الرجل يسأل عنها في كل ميناء تطأه قدماه وما أن يصل إلى ميناء حتى يرسلونه إلى آخر ولما نال منه اليأس والتعب وغلبه الشوق لرؤية صغاره عاد ليراهم ويطمئن عليهم ويستريح لأيام ثم يعاود البحث و ..

– وها أنذا قد عدت يا شيخنا نصر الدين و..

– وجئتك أنا فأزعجتك وذكرتك بفواجع الزمن و ..

– ولقد شرفتني بمجيئك يا شيخنا وعزيتني عن غياب زوجتي

– ولكن ها وقد تحقق كل ما تفوهت به العرافة .. اتذكر ما قالت بدقة يا شيخنا؟

– نعم قالت : ما ان تنذر نذرك من دون وعيك حتى تأتيك قدم الخير وتعود من سفرك فتجدها بخير و..

– وماذا ؟

– انني اذكر جيداً ما قالت إنها ..

– انها ماذا؟

– لقد قالت وبعد ثلاثة أيام يتم سعدك وها قد مضي ثلاثة أيام منذ عدت و ..

وإذا بأحد العبيد يركض مندفعا نحوهما و ..

– البشري يا سيدي لقد عادت .. لقد عادت سيدتي سلمي

* * *

لم يصدق سيف الدين أذناه حين سمع خبر عودة زوجته سلمى .. لابد وأنه يحلم .. ولكن كل ما حوله يؤكد له انها الحقيقة .. اندفعت فرحة قلبه دفعة واحدة نحو وجهه تعبر عن نفسها وإذا به كالطفل الصغير يركض فاتحاً ذراعيه نحو امه والفرحة تملأ قلبه ودموع الفرح تغرق كلتا عيناه .. وما أن لمحته سلمى حتى اغرورقت عيناها أيضا وركضت بكل قوتها نحوه .. احتضنها .. رفعها عن الارض بكل عنفوان قوته ودار بها بينما يضمها إلى صدره بكل قوته .. رقص قلباهما فرحا .. قبل وجنتيها في شوق ولهفة ثم التقط إحدي يديها يلثمها في حنان ويبثها كل حنانه وحبه وشوقه همس في اذنيها قائلاً :

– أخيراً نلتقي من جديد يا حبيبتي

– لا أصدق عيناي

– لابد للحب الذي ربط قلبينا ان يجمعنا من جديد يا حبيبتي

– ما تركت مدينة ولا قرية إلا وسألت فيها عنك يا حبيبي

نظر في عينيها بحب جارف بينما يقول:

– وما تركت نسمة هواء إلا وسالتها عنك يا حبيبتي

تذكرت الصبية فجأة فظهر القلق في عينيها و ..

– ماذا عن بثينة؟

– اطمئني يا عزيزتي فكل شيء علي ما يرام

– إذن فأين هي؟ هل عادت؟ وأين نور الدين؟ .. لقد اشتقت اليهما كثيراً

ما ان انهت سؤالها حتى اندفع نور الدين خارجا من المنزل يركض بكل قوته نحوها وخلفه بثينه يتسابقان الي أحضانها بينما يهتفان :

– أمي .. أمي ..

انحنت فاتحة ذراعيها تحتضن الصغيرين بكل حب وحنان وتقبلهما وتضمهما إلي صدرها ونور الدين يصرخ وقد امتلأت عيناه بالدموع :

– ارجوك .. لا تتركيني ثانية يا أمي

ضمنته الي صدرها اكثر واكثر بينما تقول:

– اطمئن يا صغيري فلن نفترق بعد اليوم ..

أبدا

* * *

وقف عبيد سيف الدين جميعا صفا واحداً تعتلي الدهشة وجوههم بينما جلس سيف الدين الي منضدة أمامه اكتظت بالصكوك وصرر النقود ..

نهض سيف الدين من مجلسه بينما يقول:

لعلكم مندهشون لأنني جمعتكم الآن .. لقد جمعتكم لاقول لكم أنكم منذ الآن أحراراً

علت الدهشة المختلطة بالفرحة وجوههم جميعاً وهم لا يصدقون آذانهم فقال أحدهم :

– أشكرك يا سيدي .. أشكرك كثيرا

– انني لا انتظر منكم شكراً أو عرفانا بالجميل ولست أطالبكم بثمن لحريتكم فلقد حررني الله قبلكم واشتري بحريتي حريتكم ولكن قبل ان اوزع عليكم صكوك العتق ارجوكم ..

وانهمرت الدموع غزيرة من عينيه بينما يستطرد :

– أرجوكم ان تسامحوني علي ما فعلت بكم .. إنني اعتبركم جميعاً أبنائي ويعلم الله كم يعز علي فراقكم .. قبل أن اعطيكم الصكوك أود ان أقول لكم ان من يريد العمل لدي منكم فمرحبا به وسيعمل لدي بكل عزة وكرامة وسيكون نداً لي ولن انادي أحدكم منذ الآن سوى "يا ابني" فانتم الآن والله اعلم اعز علي من أبنائي وها قد حررت جميع الجواري في المنزل ولكنني استبقيتهم عندي كبناتي حتى يخطبن ومن أراد منكم احداهن زوجه فليخطبها مني فأنا أباهن جميعاً

وما أن انهي سيف الدين حديثه حتى ابتدأ يستدعي إليه واحداً تلو الآخر فيسلمه صك حريته وكيسا من النقود ثم يحتضنه ويضمه الي صدره وتنطلق من عيون الجميع دموع تختلط فيها الفرحة بألم الفراق حتى انصرفوا جميعهم فخرج من الغرفة حزينا لفراقهم وإذ به يجد زوجته سلمي تنظر نحوه والبسمة تعلو وجهها بينما تقول :

– ألن تندم علي ما فعلت يا حبيبي؟

– لم اندم علي خير فعلته قط يا حبيبتي .. إنني استثمر الخير لدى الله يا عزيزتي .. أما ترين ما اثمر ما زرعت من قبل يا حبيبتي ؟

– أتقصد الخمسة الذين اعتقتهم ؟

– نعم

– ولكن ثلاثة منهم فقط من ردوا الجمل

– ليست كل ارض طيبة يا عزيزتي وليس كل ما نزرع نجني فقد يجني الأبناء ما زرع الآباء .. ثم من ادراك ان الباقين لن يردوا الجميل إذا ما اتيحت لهم الفرصة ؟

– صدقت يا زوجي العزيز

– أتدرين يا عزيزتي؟ .. إنني لا انتظر من أحدهم رداً للجميل او ثمناً لحريته فما علمتني الحياة يا عزيزتي أن الحرية لا تقدر بثمن ..

لا تقدر بثمن

* * *

انطلقت الزغاريد تجلجل المكان وتنشر الفرحة في كل مكان في منزل الشيخ سيف الدين ووقف المدعوين يتحدثون ويتضاحكون وقد امسك كل منهم بكوب من الشراب اللذيذ وما ان حضر المأذون حتى علت الزغاريد أكثر وأكثر وجلست العروس علي اريكة في الحديقة بينما جلس العريس إلي نفس الأريكة يتوسطهما المأذون يحمل دفترا كبيرا سرعان ما فتحه بعد أن تناول كوبا من الشراب وراح يتمتم قائلاً :

– توكلنا علي الله .. إذن فمن وكيل العروس

اطرقت حبيبة في خجل نحو الارض والفرحة تشع من عينيها بينما تقول:

– ومن سوى سيدي سيف الدين؟

وقف سيف الدين وقد كان يجلس إلى أريكة مجاورة ورفع صوته مقاطعا العروس التي بدت كأجمل ما تكون العروس

– مهلا يا عزيزتي فلم اعد سيدك فصك عتقك تركته للنهاية ليكون هديتي إليك في حفل زواجك من ابني فارس

ومد يده إليها بالصك فاخذته بين ايديها بينما ترقرقت الدموع في عينيها واندفعت الفرحة تملأ وجهها تزيده جمالاً علي جماله وما لبثت ان تمالكت نفسها قائلة :

– علي ضوء مع حدث فوكيلي هو ..

نظر الجميع إليها في ترقب وإذا بسيف الدين يقول :

– انت الان حرة يا بنيتي فلتختاري من تشائين

نظرت اليه في محبة طاغية وهي تقول :

– ومن يمكنني ان اختار غير عمي سيف الدين

وانطلق نحوها فضمها الي صدره قائلاً :

– بل قولي أبي سيف الدين فلست عمك يا صغيرتي

وامسك احدي يديها يلثمها ثم وجه حديثه إلي فارس قائلا :

– أما انت يا ولدي فلا أريد ان اسمع يوماً أنك اغضبت ابنتي حبيبة واذا ما حدث ذلك فانا من سينال منك

– إطمئن يا أبي

وأمسك بيد سيف الدين يلثمها بينما يقول :

– لا أدري كيف أرد جميلك يا أبي

احتضنه سيف الدين في حنان وضمه الي صدره اكثر وأكثر بينما يقول :

– لقد سبقت بالجميل يا ولدي

– بل إن جميلك أنت سيطوق رقبتي ما حييت يا أبي

– هل وجدت عملاً لتنفق علي عروسك وبيتك يا ابني؟

– لقد عرض علي زياد العمل معه يا أبي

– إذن ستسافر الي مصر؟

– نعم يا أبي

– ولكنني احتاج إليك بجواري يا ابني

– روحي فداؤك يا ابي

– ستعمل معي .. ساعهد إليك بكل اعمالي

امسك فارس بيمناه ولثمها بينما يقول:

– كثير علي ما صنعت اجلي يا أبي

مد يده يناوله صكا بينما يقول :

– وها هي هدية زواجك

فض الصك وقرأ ما به فإذا بالفرحة لا تسعه بينما يقول :

– هذا كثير كثير يا أبي

– ليس بكثير عليك يا ابني لقد اشتريت لك المنزل المجاور لتظل قريباً مني فهذا جميل اصنعه لنفسي

انحنى فارس يقبل يمناه ثانية بينما ربت سيف الدين علي كتفه بينما يقول:

– هيا يا ولدي لتتم زواجك ام انك غير متعجل؟

ابتسم فارس بينما يقول :

– بل لا أطيق صبراً يا أبي

– إذن فانت متلهف الي سجن الزوجية؟

– فما اجمله من سجن .. ما اجمله من سجن يا أبي

* * *

مؤخرة

يعلم الله أنني ما أن مرت شخصيات تلك الرواية في خيالي حتى أصبحت واقعاً ملموساً في عقلي تتحرك شخوصها وتتصرف وتحيى وتعيش في عقلي وقلبي حتى أنني كنت افرح لفرحهم واحزن لما اصابهم من خطوب الزمان فتنسال دموعي حينا وتغرق الاوراق التي يعيشون بها احيانا وتنبعث ابتسامتي حينا تبارك سعادتهم وفرحهم وكأنني اعيش معهم وأحيي في عالمهم احتضن صغيرتي بثينة مع سيف الدين فرحا بعودتها واضم نور الدين الي صدري في سعادة غامرة ليست باقل من سعادة سيف الدين

وكثيرا ما خلت نفسي سيف الدين وإذا بالواقع يصدمني فيعيدني بعنف الي حياتي

د. اميل نظير